رواية
لعنة
المومياء
عمرو صالح
ساحر الكتب

لعنة المومياء

رواية

عمرو صالح

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

الكتـــــــــاب: **لعنة المومياء**

المـــؤلـــــف: **عمرو صالح**

تصميم الغـــلاف: **محمد دربالة**

المراجعة اللغوية: **عيد إبراهيم عبدالله**

الطبعة الأولي: **فبراير** 2019

رقـــم الإيـــداع: 2018 / 23403

الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 220 - 2

الإخـراج الفنـــي: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

dreidibrahim@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 10 ش هدى شعـــــراوي، وســـط البـــــلد، القاهـــــرة

هاتف: 0223909119 - **موبايل:** 01001631173

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

ibda3bookstore@gmail.com

لعنة المومياء

رواية

عمرو صالح

إبداع

الإهداء

إلي عائلتي..

أمي العظيمة..

وزوجتي شيماء الحبيبة..

وأختي مُنى الرقيقة..

وأميرتي الصغيرة..

جوري.

« انهض من سباتك يا أوزوريس..
فنظرة من عينيك تقضي على أعدائك الذين انتهكوا حرمتك المقدسة »

الفصل الأول

«البداية»

(١)

طريقة تحضير سم بذرة الخروع «الريسين»..

١-أحضر وزنًا معينًا من بذور الخروع وتخلص من غلافي البذور عن طريق كسرها وتخليص البذور منها أو اذا كانت كمية البذور كبيرة فتوضع في ماء مضاف إليه هيدروكسد الصوديوم بهذه النسب..

٥٠جرام بذور الخروع ٢٨٠ مل من الماء الى ملعقتين من الصودا الكاوية.

٢- ضع البذور بعد تخليصها من القشور في خلاط أو مطحنة مع أربعة أمثال وزنها من الأسيتون واطحنها جيدا.

٣- صب الخارج من الخلاط أو المطحنة في كأس أو علبة بلاستكية وغطه جيدا لمدة ٧٢ ساعة.

٤- بعد مرور ٧٢ ساعة رشح الخليط واعصر العجينة المتبقية لإخراج أكبر كمية من الأسيتون المحتوى على المواد الغير السامة.

٥- أضف كمية جديدة من الاستون تعادل أربعة أمثال وزن العجينة في كأس أو علبة مع التغطية من جديد لمدة ٧٢ساعة.

٦- بعد مرور ٧٢ ساعة يمكنك ترشيح العجينة للحصول على السم النقي بعد عملية التجفيف.

ملاحظة:(يمكن استخدام السم المذاب في الأسيتون أيضا في عملية القتل بسم الريسين)

(٢)

كان يسعل..

يسعل بشدة..

يسعل بلا توقف..

يسعل دمًا مثل شاه مذبوحة..

يسعل حتى بدا أن أحشائه ستخرج من فمه..

فجثا على ركبيته خائر القوى.. العالم يدورمن حوله..

قلبه يخفق بعنف.. وعينيه مغرورقة بالدموع..

حينها أدرك أن النهاية اقتربت.

(٣)

إزاي إزاي، أوصف لك يا حبيبي إزاي؟
قبل ما أحبك كنت ازاي..
يا حبيييييييبي..

كان الخفير جالسًا على أريكة خشبية يحتسي الشاي الصعيدي الدافئ بتلذذ بيسراه.. أما يمناه فمتشبثة بخرطوم أرجيلة يسحب أنفاسا متلاحقة منها وعيناه زاائغتان من النشوة بينما دخانها الكثيف يتراقص حوله كأفعى..

يبادل الأدوار..

رشفة شاي فنفثة دخان..

نفثة دخان فرشفة شاي..

ترقد بجواره بندقيته الميري في سلام على جانبها.. وعلي الناحية الأخرى كلبه باسط ذراعيه..

علي خلفية موسيقية لصوت أم كلثوم الجذل الذي يدوي من مذياع قديم كأنه آت من قلب النعيم نفسه فيبعث مع قرقرة النارجيلة في السديمً موجاتً كهرومغاطيسية دافئة تصيب كل من يسمعها بالسطل..

يا حبيبي،إيه أجمل من الليل، واتنين زينا عاشقين

تايهين، محناش حاسّين العمر ثواني ولّا سنين

كان هذا هو الروتين اليومي لهذا الخفير.. إلا أنه في هذا اليوم تغير الوضع

قليلاً..

بالذات في الثانيةعشر صباحًا.. حينما جفل كلبه فجأة كأنه أصابه مسٌّ من الجن..

فطفِق يركض وينبح دون سبب..

فاستفاق الخفير من سكرته.. ثم وضع أدوات متعته جانبًا وهو يسبه بأقذع الألفاظ.. ثم التقط بندقيته ومصباح كيروسيني بائس راكضا ورائه وهو يهتف غاضبا..

-انتظر..

انتظر يابن الكلب..

والله لو أمسكتك لأعلقكك من ساقيك..

لكن الكلب استمر في العدو بلا أي اهتمام بتهديد صاحبه.. حتى وقف أمام كوة مظلمة ثم ولجها..

فلما وصل الخفير إلى هذه البقعة توقف بغتة مرتعدًا..

فهذه الكوة لم يرها من قبل.. كما أن منظرها بعث في جسده قشعريرة باردة لأنها تبدو كفتحة قبر.. لكن نباح كلبه المدوي من الداخل شوش على تفكيره فأصبح بين نارين.. أن يترك كلبه لمصيره حتى لو كان الموت.. أو أن يدخل ورائه ويمسك به ويؤدبه كما يؤدب زوجته..

كان الخيار صعبا للغاية.. لوهلة بدا مترددا.. لوهلة فكر أن يضع ذيل جلبابه بين أسنانه ويفر على عقبيه كما يقولوا.. فكل أساطيرالقرية من أم الشعور والنداهة وأبوفيس والعفاريت تراءت أمام عينيه في هذه اللحظة..

لكنه شعر بالخزي حينما تذكر جده الأكبر مغاوري الذي يُشاع عنه أنه أسر أحد سادة الجن الأزرق وتزوج زوجته وأنجب منها تسعًا.. فأخذ يتمتم لنفسه محفزا..

-تشجع ياعتمان.. لا ترتجف مثل النساء.. أنت من نسل مغاوري العظيم.. وعامة لا يوجد شيء مخيف داخل هذا الكهف.. وحتى لو وُجد فمعك ما لم يكن مع جدك.. بندقية ميري قادرة على الفتك بإبليس شخصيًّا..

فدلف الخفير الكوة بحذر.. ثم..

(هووووووووووب..)

وجد نفسه ينزلق على منحدر رملي.. ينزلق لأكثر من عشرة أمتار بلا توقف..

يتدحرج بسرعة كأنه يسقط في حفرة لا قرار لها.. حتى هوى في النهاية على أرض صلبة، ليتحطم مصباحه ويلقى نفسه مُحاصرًا بالظلام الدامس من كل ناحية..

هنالك تملك الخوف كل خليةٍ في جسده.. خاصة مع صعوبة استنشاق الهواء..

-بسم الله.. بسم الله.. قل أعوذ برب الناس.. ملك الناس.. إله الناس.. من شر الوسواس الخناس..

أخذ عتمان يُبسمل ويُتمتم بآيات من القرآن الكريم متوجسًا.. فأخرج من جعبته عود ثقاب وأشعله.. ورغم أن الضوء كان شحيحًا.. لكنه رغم ذلك نجح أن يتبين ملامح المكان بالكاد..

كانت النقوش والرسوم الملونة تحيط به من كل جانب وعلي السطح.. نقوش لثيران.. وقطط.. وبشر لهم رؤوس حيوانات.. أبي منجل.. ابن آوي.. صقر.. بقرة.. إلخ.. نقوش هيروغليفية بديعة.. كانت علامات واضحة لا تحتاج إلى تخمين.. لقد سقط داخل مقبرة فرعونية.. لكنها لسوء الحظ خالية.. خالية تمامًا..

فنصب قامته وهو يتلفت حوله.. حتى رأى كلبه في أحد الجوانب يحفر بعنف وينقب عن شيء ما.. فاندفع نحوه وهو يسبه ويجذبه غاضبًا..

-تعال.. تعال يابن الكلاب.. هل يعجبك الآن الورطة التي وضعتنا فيها يابن ال****؟!!!

لكن الكلب تملص من قبضته، واستمر ينقب بإصرار عجيب، حتى وصل الغضب بصاحبه إلى الدرجة القصوى، فقال متوعدًا..

-أقسم بالله يابن الكلاب لو لم تكف وترجع لأضربك بالنار..

لكن الكلب لم يأبه به، واستمر في الحفر وإلقاء التراب..

هنالك تذكر عتمان جده مرة أخرى، حينما أخبره أن ما يميز الرجال عن الحريم أن كلماتهم بتَّارة كالسيف فلا يخلفون وعودهم أبدًا مهما كان الثمن.. فوجد نفسه تلقائيًّا يرفع سلاحه ويوجه فوهته نحو الكلب.. ثم ضغط على الزناد و..

طاااااااااااااخ..

حينها صعقته المفاجأة.

(٤)

القاهرة..

ستاربكس كافيه..

-أحبك أكثر من أي شيء.. أكثر جنونًا من راقصة رامبو ترقص في الخلاء عارية.. وأكثر جموحًا من جواد يُطارد مهجته في البرية.. وأشد تفجيرًا من العنصر الثاني والتسعين نفسه..

-هاهاهاها.. وياترى ماهو العنصر الثاني والتسعين يامتحذلق؟!!!

-اليورانيوم يامغفلة هاهاهاها..

جلست سارة بمواجهة آسر وهو يعترف لها بما يعتمل في قلبه، وعيناه تلمع بوهج حب حقيقي، لدرجة أن قدح الكابتشينو الذي تحمله ارتجف من التوتر حتى انسكب بعضه من المفاجأة.. بعدها وضعت أناملها على أنامله تعتصرها في حنان وهي تقول له..

-هاهاهاها دائمًا مختلف.. حتى في تعبيراتك الرومانسية مختلف.. لكن يكفي هذا ياآسر.. يكفي هذا ياحبيبي.. ماذا تريد أن تثبت لنفسك؟!!! يكفي ما خضته من مغامرات.. الكل يعلم أنك أشجع رجل في العالم.. وأنا أزيد عليهم بأنك أشجع رجل في التاريخ.. أشجع من هرقليز.. وسبارتاكوس.. والإسكندر الأكبر.. وعنترة نفسه.. لن أنتظر اليوم حتى يبعث لي أحدهم بصورتك وأنت جثة هامدة ملقى بك في مقالب النفايات.. أو ممثلٌ بجثتك وصورتك في الصفحة الرئيسية لكل الجرائد ومكتوب فوقها الفراعنة يضربون من جديد.. ضحية أخرى للعنة الفراعنة..

فتراجع آسر للخلف ثم قهقه متهكمًا بلا اكتراث..

-هاهاهاها.. ما كل هـذا؟!!! لهذا ارتبطت بكِ.. لأنكِ جامحة الخيال كأسطورة إغريقية.. أنت تضخمين الأمور كعادتك.. هذه مجرد رحلة عمل روتينية..

كانت سارة مثال للحسناوات التي يُقرَض فيهن الشعر.. ذات شعر أشقر ومتموج كالأسد.. عينان كحيلتان غجريتان.. أنف روماني.. وجسد متناسق يزيد من غوايته منحنياته المثيرة.. كما قال الشاعر..

مهفهفة والسحر في لحظاتها.. إذا كلمَتْ ميِّتا يقوم من اللحد..

فقالت بوجه ممتقع ثائرة..

-لا.. ليست كأي سفرية.. أنا متشائمة من هذه الرحلة.. يمكنك أن تنعتني بالمجنونة أو المخبولة.. لكن هناك شيء قويٌّ يُخبِرني أن هذه الرحلة لن تنتهي على خير.. وطيلة عمري كان حدسي صادقًا.. بصراحة لقد راودني حلمٌ سيئٌ..

لكن آسر لم يعبأ بتوسلاتها فقبض على يديها بحنان، لكنها سحبته منه بعنف كَهِرَّة غاضبة..

-هاهاهاها.. الأحلام مرة أخرى.. صدقيني ياحبيبتي هذه الرحلة مهمة جدا في مسيرتي.. أنا لست مجرد عالم آثار أومستكشف فقط.. الأمر أكبر من هذا.. عملي في الآثار ليس مجرد وظيفة.. التاريخ هو حياتي.. الآثار تجري في دمي.. أنا مثل طائر الطنان.. أقتات على رحيق الآثار.. كما أن الأمر تعدى ذلك فبسبب مغامراتي قد حققت صيتا لا بأس به.. صدقيني عندما تعرفين طبيعة مهمتي ستفتخرين بي.. عمومًا كل ما أستطيع ان أعدك إياه في هذه الرحلة أنني سأعود لكِ سالمًا.. كل شيء مخططٌ له بدقة..

نال آسر الدكتوراة في التاريخ الفرعوني.. لذا فبسبب نوع دراسته ونشاطه الزئبقي فقد ترشح للعمل في المتحف المصري الكبير..

لكن ليس هذا فحسب لكنه امتلك أيضًا موهبة الحكي.. فبسبب نشره حكاياته ومغامراته المثيرة على الفيس بوك انجذب له المتابعون كالهوام.. تدفقوا بأرقام مذهلة كسيلٍ عَرِم.. فأصبح ضيفًا دائمًا في المحطات التلفزيونية يسرد فيها بأسلوبه الساحر مَغامراته.. وفي خلال أشهر معدودة أصبح من أشهر الشخصيات المؤثرة في السوشيال ميديا.. حتى إنك تتوقع أن تراه في كل مكان.. التلفاز.. الراديو.. الفيس بوك.. تويتر.. الجرائد.. اللوحات الإعلانية الضخمة على الكباري.. حتى أنك لو أدرت الصنبور يمكنك أن تجده..

فتعدى متابعوه الملايين الثلاثة.. حتى أصبح له برنامجًا تلفزيونيًّا وإذاعيًّا في نفس الوقت يسرد فيه مغامراته الأثرية بأسلوبه الجذاب المحبب للنفس.. وما زاد من تأثيره وسامته.. فهو يبدو بشعره الأسود المرسل المموج وجسده المفتول وعينيه العسليتين وفكه القوي مثل الرجل الفيتروفي الذي رسمه دافنشي من قبل..

وبالرغم من كونه ينتمي لأسرة متوسطة يعمل ربُّها موظفًا بوزارة التربية والتعليم.. لكن ذكائه خارق.. درجته في اختبار الآي كيو IQ تجاوزت مئة وخمسة وخمسين.. مثله كمثل إينتشين.. لكنه إينشتين السوشيال ميديا..

فسحبت سارة يدها من قبضته كهرة غاضبة.. ثم انفجرت في البكاء وهي تتوسل إليه..

- أنا أخشى عليك يا آسر.. صدقني لست مرتاحة بالمرة.. لن أطيق أن يحدث لك أي سوء.. لو حدث لك أي مكروه سألقي بجسدي في النيل في الحال..

لكنه أمسك بأصابعها، وعيناه تحاول طمأنتها مبتسمًا لها حتى بدت نواجذه..

-إذن ستكون ميتة رومانسية..

صدقيني سأعود لكِ سالمًا.. لا لشيء إلا لأنني أحبك جدا كما قال نزار..

لأنك ست النساء وليس لديَّ بديل..

سأعود..

أعدك..

*****

في اليوم التالي التقطت سارة وآسر صورة سيلفي أخيرة لهما سويًّا في مطار القاهرة.. أجهشت بعدها بالدموع وقلبها يكاد ينفطر وهي تتابعه بناظريها حتى غاب داخل صالة السفر..

بعدها بساعة حلقت طائرته بعيدًا نحو وجهته المنشودة.. مدينة الضباب.. عاصمة بريطانيا العظمى.. لندن.

(٥)

حي بلومزبري في لندن.. في شارع راسل العظيم..

وقف آسر أمام مبنى ضخم على النمط الإغريقي.. مبنى مهيب أقرب إلى المعبد.. معبد أثينا بولياس بالتحديد.. بأعمدته الأيونية.. وسقفه المنحدر المزخرف بخمسة عشر تمثالاً..

وقف آسر مبهور الأنفاس.. العرق يسيل على منبت عنقه.. قلبه يثب منتشيًا.. وجالونات من الأدرينالين تتدفق في دمه وتُدغدغ عروقه..

شعورٌ رهيبٌ بالإثارة.. هو يعرف اسم هذه المتلازمة جيدًا.. متلازمة ستاندال.. فهي ليست المرة الأولى التي تقع له.. وهذه هي مزية عمله أنه جرب هذا الشعور الممتع الذي أدمنه حينما زار أماكن أثرية شتى.. لكنه شعر بانبهار أكثر لأن هذا المتحف يجمع كنوزًا هائلة من العالم القديم.. كنوزًا لن يراها في مكان واحد سواه.. المتحف البريطاني..

دقائق قليلة وأظهرت كاميرات المراقبة اجتياز آسر بوابات الكشف الإلكترونية بسلام.. رغم نظر الحارس إليه بعين الريبة.. ملامحه العربية مفضوحة وواضحة للعيان.. حتى سببت له بعض الارتباك فيما الجندي يحدجه بنظرة زجاجية باردة وهو يقبض على سلاحه كأنه يتوقع في أي لحظة أن يهاجمهم بقنبلة أو أن يفتح معطفه فيكشف عن حزامه الناسف الذي يُلغم به جسده وهو يهتف.. الله أكبر.. أو الموت لكم أيها الكفار الأوغاد أو أي شيء من هذا القبيل..

لكنه في النهاية عبر بسلام.. عبر وهما يتبادلان النظرات المتحفزة.. نظرات ممتزجة بين خوفٍ وكراهيةٍ تصلح قصةً لفيلم سينمائي قصير ينال السعفة الذهبية..

بعدها بدقائق قادته خطواته إلى قسم مصر القديمة والسودان.. حتى أحس بمرارة للوهلة الأولى.. لو علم رواد السوشيال ميديا أن هناك قسمًا يضم البلدين سويًّا غير منفصلين لانتشر كالنار في الهشيم.. ولأغرقوا الشبكة العنكبوتية بالبكاء على الأطلال والترحم على أيام العز والملكية وسب ثورة ٥٢ والضباط الأحرار وعبدالناصر الذين مزقوا وشائج الوحدة إلى بلدين العلاقة بينهما متوترة وأحيانًا تصل للعداء بسبب رواسب عنصرية، وبسبب الصراع على حلايب وشلاتين..

مضى آسر بتؤدة حتى انضم لفوج سياحي أمريكي يقوده مرشدٌ طويل القامة أشقر الشعر ذو لكنة أيرلندية الذي انبرى يشرح لهم وأعينهم تفيض من الانبهار..

-نحن الآن في القسم المصري.. حسنا.. صدقوا أو لا تصدقوا!!!هذا القسم يضم أكثر من عشرة آلاف قطعة..

فشهق الجميع في صوت واحد، بينما تمتم آسر في غيظ مكتوم وهو يجز على أسنانه..

-اللصوص أولاد الأفاعي..

ثم استطرد في الشرح..

-الأقصر وحدها تضم ثلث آثار العالم.. وقد نهب المهربون كنوز مصر لفترات طويلة كأنهم يغرفون من آبار لا تنضب.. وبالرغم من الآثار العظيمة التي لا تزال موجودة في مصر، لكن كمية هائلة من الثروات خرجت منها بالفعل..

تقدم المرشد وأردف بذات الحماسة..

- البداية قديمة جدًّا.. منذ معركة النيل عام ١٨٠١ حين نجح الأسطول البريطاني في سحق نظيره الفرنسي، بعدها صادروا مئة وستين قطعة منها التحفة التي تقفون أمامها الآن.. كلمة السر.. المفتاح الذي فك الأحجية التاريخية التي طالما حيرت العلماء والمؤرخين.. الحلم.. حجر روزيتا..

وقف الجميع يحدقون بانبهار في الحجر الجرانيتي الأسود الهائل الذي يحوي ثلاثة أنواع من الكتابات..

كان آسر يعلم فرق المسميات التاريخية بين المصريين والإنجليز.. فحجر روزيتا هو حجر رشيد، ومعركة النيل هي معركة أبي قير البحرية..

استأنف المرشد الحديث وهو ينظر إليهم..

-كما قلت الحجر يضم ثلاث لغات.. الهيروغليفية وهي اللغة المصرية المقدسة المتداولة داخل المعابد.. الديموطيقية.. وهي اللغة الشعبية السائدة بين المصريين.. وأخيرًا اليونانية.. وهي لغة الحكام البطالمة الذين كان يحكمون مصر أوانها.. وقد نجح العالم الفرنسي العظيم شامبليون في مضاهاة الخطوط وفك الشفرة أخيرًا..

ثم استطرد المرشد في قراءة النص المكتوب على حجر رشيد بصوت رخيم بلغة شاعرية..

- في اليوم الرابع عشر من شهر كساندیكوس الموافق يوم ١٨ من شهر أمشير المصري اجتمع كبار الكهنة والمنبئين، وهؤلاء المسموح لهم بدخول الهيكل المقدس لخدمة الآلهة وحاملوا المراوح وكتـاب القديسين وكهنة المعابد الآخرين الآتين من جميع أنحاء البلد الذين أتوا إلى منف لمقابلة الملك بمناسبة عيد تتويجه..

اجتمعوا في هذا اليوم في معبد منف وشهدوا أن الملك بطليموس ابيفانيس أوخاريستوس محسن للمعبد وللعاملين فيه وكذلك لجميع الشعب وأنه إله ابن إله.. مثل حوروس ابن إيزيس وأوزوريس المنتقم لأبيه وأنه يقدس الآلهة.. قدّم للمعبد دخل من الثروة والحبوب وصرف الكثير من أجل رخاء مصر وزوّد المعابد بالإمدادات، وهو سخي بثروته الخاصة وقام بإلغاء العوائد والضرائب التي كانت واجبة في مصر كما خفّض أخرى حتى يتمكن الشعب من العيش في رفاهية أثناء حكمه وألغى الديون المستحقة للقصر وهي كثيرة المستحقة في مصر وباقي المملكة، وكذلك حرر هؤلاء النازلين في

السجن وآخرين الواقعين في قضايا منذ زمن طويل..

بدت طريق إلقاء المرشد شاعرية للغاية.. حتى أن آسر اندمج معها وتخيل لوهلة أنه الشخص الذي يلقي الخطاب في منصة يجلس عليها الملك المتوج.. بعدها بلحظات وجدوا أنفسهم أمام عارضة زجاجية تحمل برديات ملونة مبهجة مكتوب على لوحة نحاسية هذا العنوان..

«كتاب الموتى المنسوب إلى الكاتب آني»

كانت الألوان زاهية جدًّا كأنها مرسومة بالأمس وليست منذ آلاف السنوات.. الجميع فاغرٌ فاه.. وهو كذلك.. لقد خلب كتاب الموتى لبّ آسر منذ وقت بعيد.. لدرجة أنه قرأ أكثر من نسخة له، وفي كل مرة يشعر كأنه يقرأه للمرة الأولى بذات القدر من الانبهار..

فمضى ببطء أمام بردياتها مسحورًا حتى وقف أمام البردية الشهيرة التي تمثل محكمة الموتى.. البردية التي يظهر فيها أوزوريس جالسًا على العرش وبجواره أختيه نفتيس وإيزيس، أما أنوبيس برأسه ابن آوي المميزة يقود آني..

ثم يظهر أنوبيس مرة أخرى جاثيا على ركبتيه وهو يقوم بعملية وزن القلب فيضع قلب الميت في كفة وفي الكفة الأخرى يضع ريشة ماعت.. ريشة الحق.. بينما يظهر تحوت برأس طائر المنجل المميزة منهمكًا بتدوين النتيجة النهائية.. نتيجة أصعب امتحان يمكن أن يمر به إنسان.. الامتحان الذي إذا نجح فيه فإنه سيعبر بسلام إلى حدائق القصب والجنة الأوزيرية.. أما لو فشل فسيكون مثواه الجحيم حيث يلتهمة الوحش المخيف عمعموت الذي يتألف من ثلاثة حيوانات مفترسة في كيان شيطاني واحد.. رأس تمساح.. بجسد أسد.. ومؤخرة فرس نهر..

كان لايزال صوت المرشد مدويًّا وهو يشرح..

-وكتاب الموتى هذا عبارة عن مجموعة من التعاويذ والتمائم وتعليمات

وإشارات سرية.. يمكن أن نقول عليها ببساطة أداة للغش وللمساعدة، لتُعين الميت في رحلته إلى العلم الآخر، وتجاوز الاختبارات الصعبة.. بعضها وُجد منقوشًا على جدران الأهرام وفي المقابر.. أما البعض الآخر في الدولة الحديثة فكُتب في صورة صحائف تصمم تبعًا لطلب كل شخص، وتُباع بمبالغ مهولة حوالي نصف مرتب سنوي لموظف كبير في الدولة..

فارَقَ آسر الفوج منبهرًا بشدة من أثر الجمال الذي رآه، واتجه نحو قاعة ٦٢.. قاعة المومياوات.. القاعة التي تعجّ بعشرات التوابيت والجثث المحنطة..

فهذه مومياء لامرأة مُسنة اسمها كاتيبت عملت منشدة رسمية للآله آمون.. وجهها مغطًّى بقناع ملون من طبقات من الكتان والجص.. ذات شعر مستعار وبأذنيها أقراط بيضاء.. وعلى بطنها خنفساء الجعران كي تحميها في رحلتها السفلية الطويلة وبجانبها تماثيل الأوشابتي..

علي بضع خطوات ظهرت مومياء صبي يونانيّ محنطة في صندوق من الجص مطلي باللون الأحمر مرسومة عليه صورته مصاحبة بمشاهد جنائزية يظهر في معظمها أنوبيس ومكتوبٌ أسفلها.. «وداعًا أرتيمدورس..»

بالجوار وجدت مومياء ذات شعر منفوش ضخم لطفلة اسمها تجاي أستيمو.. ماتت في السابعة بعينين وادعتين هادئتين.. بجانبها مومياء أخرى تنظر لأعلى كأنها تبتهل.. تخص باديامينت حارسة معبد رع..

أما على الناحية الأخرى فتواجدت مومياء الرجل الكتان الذي دُعي بذلك لتغطيته بالقماش من رأسه لأخمص قدمه بسبب فكه المُدَمَر بسبب دمامل الأسنان.. وفي ذات الصف رأى نعشَ الملك نب خبر رع أنتف.. وهو مثال للتوابيت الضخمة الريشية لأن سطحه مزخرف بجناحي نسر ويتخذ شكل إنسان..

كانت المومياوات في كل مكان.. مومياوات جديرة بأفلام الرعب.. لو استيقظت لفتكت بكل الحاضرين.. لكنها لم تنحصر فقط في البشر.. بل

ظهرت حيوانات أيضًا محنطة.. ثيران.. كلاب.. قطط.. حتى يخيل للزائر أن المصريين لم يتركوا شيئًا وإلا حنطوه..

كان آسر مشدوهًا للغاية.. عيناه معلقتان بهذه التحف كطفل.. قلبه يتواثب كضفدع.. يكاد يبكي من فرط الإثارة.. حتى شهق حينما وصل لتابوتٍ منزوٍ في الركن كأن أحدهم يحاول إخفاء أثره..

تابوت ساحر مرسوم عليه صورة فتاة جميلة بشعرها المستعار وعينيها الكحيلتين الهادئتين.. كانت هذه هي المومياء المنشودة.. المومياء رقم ٢٢٥٤٥.. المومياء المشئومة The Unlucky Mummy.

(٦)

جلس آسر في حضرة جوزيف ويسلون مدير المتحف البريطاني ذاته.. رجل مهيب حليق الرأس ذي لحية نامية.. قمة التواضع رغم شهرته الواسعة.. فلَوَّح في وجه آسر وهو يضحك..

-ها.. أين ذهبت.. لم أكن أعلم أن هذه اللوحة لديها القدرة على التنويم المغناطيسي هكذا؟!!!

شرد آسر في لوحة «إصرار الذاكرة» لسلفادور دالي، التي تظهر فيها مجموعة من الساعات الناعمة المطوية حول ذاتها.. واحدة على فرع شجرة.. وأخرى على محارة وثالثة على منضدة.. تطلع إليها آسر بعين لا ترمش.. لو كانت هذه نسخة مقلدة فهي عبقرية بالتأكيد..

لوحة مدهشة بالفعل لا يرسمها إلا المجنون سلفادور دالي.. فقال لجوزيف مبهورًا..

-اللوحة رائعة للغاية؟ هل هي أصلية؟!!!

فهزَّ جوزيف رأسه نافيًا مبتسمًا..

-هاهاهاها.. لا بالطبع.. لكنها نسخة عالية الجودة.. الأصلية في متحف الفن الحديث في نيويورك.. الصراحة لقد فتنت بأعمال دالي منذ الصغر.. لقد كان عبقريًّا بالفعل.. بصراحة كل شيء فيه مثالي باستثناء شاربه المضحك.. هاهاهاها..

فبادله آسر الضحك وهو يومئ برأسه..

-هاهاها.. نعم.. أتفق معك مئة بالمئة..

فاستأنف جوزيف الحديث بلهجة حماسية وهو يُحدق في اللوحة..

-هل تعرف.. هذه اللوحة بالذات هي المفضلة بالنسبة لي؟!!! ربما لأنني كلما نظرت إليها تذكرت حقيقة هذه الحياة.. العالم الذي نعيش فيه أكبر وهْم.. كل شيء مآله الزوال.. كل شيء سينهار في لحظة ما.. حتى الزمن نفسه.. الحياة قصيرة جدا ياصديقي..

أوما آسر برأسه مُصدقًا على كلامه.. خجل أن يقاطع الرجل الذي غيَّر لهجته فجأة..

-أعتذر لك.. بالتأكيد لم تقطع كل هذه المسافة لتستمتع إلى ترّهات رجل عجوز..

-هاهاهاها.. لا.. على فكرة أنا مستمتع بالحديث معك جدًّا..

فنهض من مقعده ثم أخرج من دولابه زجاجة نبيذ فاخرة من الخمر المعتق..

-هل تشرب؟!!!

فلَوَّحَ آسر بيده معتذرًا في أدب..

-لا.. أشكرك.. لا أدخن ولا أشرب الخمر..

فقهقه جوزيف..

-هاهاهاها.. بسبب الدين.. أليس كذلك؟!!!

فهز آسر رأسه بأدب علامة الإيجاب.. حتى غيَّر جوزيف دفة الحديث فجأة..

-لكن هل أنت متأكد مما تطلبه؟!!!

ارتسمت علامات الوُجُوم على وجه آسر، فردَّ عليه وهو يتلعثم..

-ما.. ماذا تقصد سيدي؟!!!

-أقصد ألا تؤمن بلعنة الفراعنة.. هل تعرف تاريخ الكارثة التي تود نقلها لبلدك؟!!!

فأجابه آسر بلا تردد ضاحكًا..

-هاهاها.. بالطبع.. لكن هل تصدق أنت نفسك في شيء يسمى لعنة الفراعنة؟!!!لقد اكتشفت عشرات المقابر، وأنا أمامك سليم لم يمسسني سوء.. باختصار ياسيدي! الغرب يعشقون الأساطير من أجل أن يُروِّجوا لبضاعتهم..

بالطبع لعنة الفراعنة لها أصل تاريخيّ.. لا يوجد دخانٌ بدون نار كما نقول عندنا في المثل الشعبي.. لكن في رأيي أن كل شيء يوجد له تفسير منطقي.. ربما يكون الأمر في النهاية بسبب مواد مشعة.. أو هواء مسمم بفطريات قاتلة.. أو.أو.. لكن اللعنة كمس جن أو أشباح أو أي شيء من هذا القبيل لا أقتنع به تمامًا..

جلس جوزيف وهو يحتسي الخمر وقد اكتست ملامحه بعلامات الجدية..

-إذن هل قطعت كل هذه المسافة من أجل هذه المومياء فحسب؟!!!

فرد عليه آسر في حماسة منقطعة النظير بدون تفكير..

-بالطبع.. هذه المومياء تحفة فنية متكاملة.. المتحف المصري الكبير أوشك على الإفتتاح.. وأظن أنه المكان الأحق بها.. موطنها الحقيقي.. بصراحة أنا أغار بشدة على آثار بلدي.. وأظن أن بريطانيا لن تمانع في عودتها إلى مصر خاصة أنني أعرف كم تتشاءمون منها..

فضيَّق جوزيف من عينيه ثم قال بصوت عميق..

-أتفق معك أن هذا التابوت رائع الجمال.. بصراحة أجمل التوابيت التي رأيتها في حياتي.. تاريخيا التابوت يعود إلى أواخر الأسرة الحديثة.. أي لو قمنا بحسبة تاريخية بسيطة فيعود إلى عام ٩٥٠ قبل الميلاد.. بعضهم يظن صاحبته كاهنة وآخرون يدعون أنها أميرة أو ملكة.. وإن كنت شخصيًّا أتفق مع العالم الشهير واليس بدج الذي رجح الاحتمال الأخير..

اعتقادي أنها أميرة حاول أحدهم طمس اسمها.. أراد حذف اسمها من التاريخ كما حاول تحتمس الثالث مع حتشبسوت.. لكن لا شك أن العكس

هو ماحدث.. وأنه فشل في مخططه..

صحيح هل تعلم ما هو مكتوبٌ في أسفل التابوت تحت رأس المومياء؟!!!

فأجابه آسر على الفور..

-لا.. .

صمت جوزيف ثم نهض من مقعده ومضى ببطءٍ نحو مقعد آسر.. ثم انحني ناحيته وهو يتكلم بصوت خافتٍ عميق وعيناه متسعة..

-انهض من سبااااااتك ياأوزورييييييييس.. فنظرة واحدة من عينيك تقضي على أعدائك الذين انتهكوا حرمتك المقدسة..

رَانَ الصمت للحظات.. تجمد فيها آسر في مقعده، وازدرد ريقه بصعوبة.. قبل أن يلكزه جوزيف في كتفه وهو يقهقه..

-هاهاهاها.. ماذا حدث أيها المغامر.. هل خفت؟!!! نجحت في إثارة رعبك.. ها؟!!! بصراحة طيلة عمري كان أحد أحلامي أن أصبح ممثلاً مسرحيًّا.. كان جورج أرليس هو قدوتي بالتحديد.. لكني تخاذلت وشغفت حبًّا بالتاريخ.. عامة لا تخشى شيئا أيها الشاب المقاتل.. أنا مثلك أؤمن أن كل ما قيل عن اللعنة من قبيل الخرافات.. فكما ترى أنا مدير المتحف البريطاني ولم يمسسني سوء.. كما أننا لو تكلما بمنطق الإحصائيات فلا توجد أي حادثة مسجلة بسبب هذه المومياء منذ أكثر من ثمانين عامًا.. وعامة وحتى تصدق حسن نيتي أنا موافق على عودة التابوت إلى مصر.. ليس لفترة محدودة.. لا.. بل نهائيا.. وقد حصلت على موافقة الحكومة على ذلك..

ثم قهقر ظهره للوراء، وهو يزفر نفسًا طويلاً ويقول بصوت متهكم..

-آاااااه.. أظن أنه ستُدون في إنجازاتي كمدير للمتحف أنني تخلصت من هذه المومياء النحس.. هذا لو وصلت بالمومياء إلى وطنك بسلام.. هاهاهاها.. مبروك مستر آسر.. التابوت لك..

ثم غمزه وهما يتصافحان سويًّا في حرارة.. وآسر يكاد يطير فرحًا لنجاحه في هدفه..

-أشكرك ياد. جوزيف.. الصراحة لم أتوقع كل هذا التعاون منك..

لقد أسديْت لي ولوطني خدمة جليلة.. أنا حقيقي ممتنٌّ لك.. أشكرك مجددًا..

لوَّح جوزيف في وجهه مستنكرًا..

-لا.. لا تشكرني.. كما أخبرتك.. أنا من يجب أن يشكرك.. هاهاهاها.. عامة.. هناك شيء وحيد أريد أن أهديك إياه قبل أن تغادر..

نهض د.جوزيف من مقعده متجهًا إلى دولابه، ليخرج منه كتابٌ أنيقٌ معطيًا إياه لآسر..

-خذ هذا الكتاب.. ستحتاجه..

فقال آسر مندهشا..

-ماهذا؟!!

-هذا الكتاب يحوي تاريخ المومياء بالتفصيل.. سيفيدكم في عرضها.. أو لتمتعتم بالشجاعة الكافية وصنعتم فيلمًا وثائقيًّا عنها..

فالتقطه منه آسر وعلى ثغره تلوح ابتسامة هادئة..

-هاهاها.. أنت متشائم للغاية د. جوزيف.. حسنًا سأقرؤه بالتأكيد.. أشكرك مرة أخرى..

ثم صافحه مرة أخرى وخرج من مكتبه.. بينما عينا جوزيف لا تبارحه وهو يتابعه من النافذة متمتمًا..

-فلتصحبك السلامة.. فلتصحبك السلامة يا بُني.. ليكن الإله في عونك!.

(٥)

في اليوم التالي..

وصل آسر مطار لندن في غاية السعادة..

يا له من إنجاز!.. لقد نجح في مهمته في استعادة كنز لا يُقدر بثمن.. تحفة ستضمن ترويجًا هائلاً بما دار حولها من أساطير للمتحف الحديث.. فارتخى في مقعده في الطائرة.. ثم فتح الكتاب وبدأ القراءة.

الفصل الثاني
المقبرة

(١)

الدير البحري- ١٨٨٨م..

كانت الليلة مظلمة كحلاء.. عباءة قاتمة بلا أي نجوم.. لا يفضها إلا أصوات صراصير الحقل ونباح الكلاب.. في ذات اللحظة تحرك في جنح الظلام أربعة رجال ملثمون في همة كخفافيش يتقدمهم شخص نحيل أشعث الشعر كالقنفذ يحمل مشعلاً ناريًّا.. بينما الآخرون يحملون جُوَالات بها معاول وحبال.

يقودهم جميعًا شيخ أشهب اللحية أحدب يتوكأ على عصاه يتمتم بكلمات غير مفهومة ويرتجف كالممسوس..

-باهيا شراهيا دوناي طيوش..

باهيا شراهيا دوناي طيوش..

حتى وصل إلى شجرة موحشة عجيبة الثمار طلعُها كرؤوس الشياطين ليقول لهم بصوت خشن عميق..

-هذه هي الشجرة الملعونة.. هذه هي غايتكم..

إلا أن الرجال ارتعدوا بغتة كأنهم رأوا شيطانًا.. لأنهم وجدوا أنه يخرج من ورائها كلبٌ أسودٌ ضخم عيناه ممتقعتان بالدم يرغي ويزبد ويحدجهم بنظرات نارية قادرة على إذابة الحديد ذاته..

فأخرجوا معاولهم ورفعوها في تحفز.. ليمنعهم الشيخ، ويشير إليهم بالتراجع بصوت آمر..

-تراجعواااااا.. لا تتقدموا خطوة واحدة حتى لا يؤذيكم.. هذا رصْد من

الجن.. أنا أجيد التعامل معه..

ثم أخرج من جعبته كيسًا أسود به منقوعٌ مخلوطٌ من عيدان الحلفا بر والكرمل والنيلة الزرقاء، وأخذ ينثره في وجهه كماء مقدس، وهو يتلو بصوت أجش متصاعد كالرعد..

-بسم رب سليمان.. غادر المكان بسلام.. عليك السلام.. بسم رب سليمان.. غادر المكان بسلام.. عليك السلام..

لكن الكلب كان لا يبالي، كأنه يستمعٍ إلى حكايات العجائز، فأخذ يتقدم نحوهم باستهتار، وهو ينبح نباحًا مخيفًا بث الرعب في قلوبهم، حتى تبوَّل أحدهم على نفسه.. لكن الشيخ لم يهبْه، فتقدم نحوه في تصميم وهو يجأر..

- بسم رب سليمان.. غادر المكان بسلام.. عليك السلام.. بسم رب سليمان.. غادر المكان بسلام.. عليك السلام..

حتى كررها سبعا.. ثم أخرج من جعبته خرقة بالية من جلد تيسٍ مرسوم عليها أحرف وأرقام ووضعها أمامه..

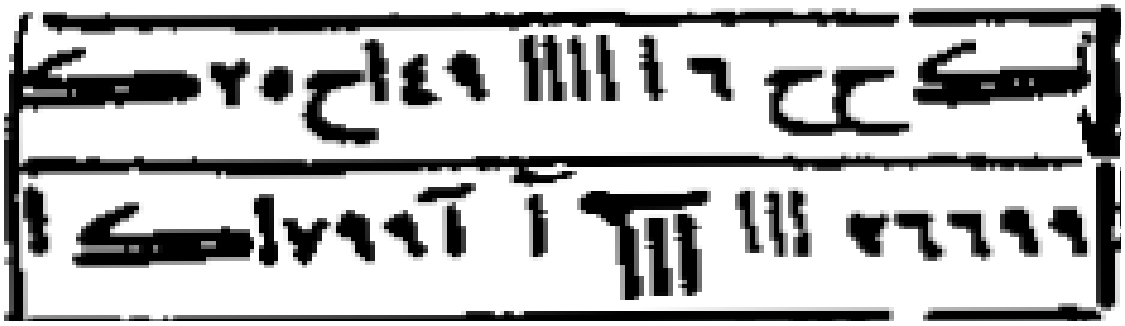

وهو يصيح بصوت عجيب مخيف..

-آاااااااااااااااااااااااااه.. .آاااااااااااااااااااااااااه..

أياااااااااااااا وهو لا..

أياااااااااااااااااااااا وهو لاااااااااااااااا..

ليتراجع الكلب في النهاية مصطدما بنظرات الشيخ الكاسحة مُصدرًا أنينًا مذعورًا.. فنكصَ على عقبيه وهرول بعيدًا والشيخ يركض في إثره وهو يلقي عليه المسحوق حتى تبخَّر كأنه لم يكن.. ليعود إليهم مبتسمًا مزهوًّا بنفسه كطاووس.. ثم انحنى والتقط من الأرض أربعة أحجار صغيرة ووضعها في بقعة أسفل الشجرة وهو يشير نحوها بصوت غليظ..

-بسم الله.. الله المستعان.. ابدؤوا الحفر هنا.. هذا هو مقصدكم..

ليبدؤوا الحفر..

*****

في الأيام التالية واصل الرجال الحفْر بهمة.. كانوا يهبطون على سقالة خشبية على عمق سبعة أمتار.. بعدها ينزلون بسلم خشبي على عمق سبعة أمتار أخرى حيث الجو الخانق والرائحة العطنة.. رئاتهم تستخلص الأكسجين كأنما تستخلص الماس من التراب.. التنفس غدا نوعًا من الأشغال الشاقة المؤبدة.. أسرى داخل نفق متهاوٍ يمكن أن ينهار بهم في أي لحظة..

بينما محمود عبدالرسول الشاب النحيل رئيسهم يتابعهم كالصقر بوجهٍ خشبي وهو ينفث التبغ تراوده أحلام اليقظة بالعثور على مقبرة ملكية ممتلئة عن آخرها بالذهب والكنوز..

ولِمَ لا.. فهو سليل عائلة عبدالرسول أشهر العائلات في تجارة الآثار.. العائلة التي اشتهرت باكتشاف خبيئة الدير البحري.. فعلها أولاد عمه المحظوظان أحمد ومحمد.. رغم أنهم كانوا مجرد رعاة غنم صعاليك.. حتى ابتسم لهم الحظ ذات مرة لما ابتعدت عنهم إحدى الأغنام باحثة عن طعام تأكله.. فأضناهم البحث عنها في كل البقاع القريبة حتى سمعوا صوتها يتردد من قاع بئر..

كان الأمر مريبًا، ومع ذلك نزلوا إليها ليجدوا أن القاع شاسع يشبه الحوش.. فأشعل أحمد الثقاب ليشهق الإثنان من هول المشهد.. لقد اكتشفا كنز الكنوز.. قاعة كاملة من التوابيت.. فصاح منتشيًا..

-لقد اكتشفنا كنز قارون.. لقد اكتشفنا كنز قارون..

لكن أخوه ضربه على رأسه وهو يقول له..

-لا يا مغفل.. هذه توابيت الفراعنة..

بعدها حققت العائلة ثروات هائلة من تهريب الآثار.. باعوا أكثر من أربعة وأربعين مومياء حتى ألقى عليهم ماسبيروا القبض في النهاية.. لكنه ساومهم بعد ذلك على تحريرهم لو رضخوا له..

-هاهاهاهاها.. أهلا بالمهربين المخضرمين..

لن تصدقوني لو أخبرتكم كم كنت أتوق إلى هذا اليوم.. أن ألقي القبض على أكبر لصوص للآثار في العالم.. ومع ذلك فإنني لست غاضبًا منكم للدرجة.. كلنا مهووسون بالآثار، لكن كل واحد منا يُعبر عن حبه بطريقته المختلفة.. لهذا سأكون متسامحًا معكم.. متسامحًا لدرجة لن تصدقوها.. لدرجة أنني مستعدٌّ على أن أعقد معكم صفقة.. صفقة ذهبية..

باختصار.. لو أرشدتموني إلى مقبرة رمسيس الثاني سأطلب من السلطات الإنجليزية الإفراج عنكم.. وفورًا.. ستنالو حريتكم بالكامل ولن تنالوا أي عقاب..

تبادل أحمد ومحمد النظرات لبُرهة، قبل أن يقول محمد في صوت حاسم..

-أنا لا أفهم شيئًا.. ورغم هذا فموافق.. لكن بشرط..

فقال لهم ماسبيرو متعجبًا..

-أي شرط؟!!!

- لي طلب؟!!!

-طلب.. ألا تكفي حريتكم؟!!!

فتقدم محمد خطوتين للأمام وهو يقول بثقة مخيفة..

-لا.. طلبنا أكبر من ذلك بكثير..

ثم استطرد وهو يلعق شفتيه..

- نريد صك صورة جدنا عبدالرسول الكبير على جنيه معدني مثل ملكة بريطانيا..

فصعق ماسبيروا من جرأته حتى كاد يسقط على الأرض من شدة الضحك.. كان الطلب غريبًا.. وساذجًا جدًّا.. لكن الجائزة كبيرة.. كبيرة جدًّا أيضًا.. لذا رضخ لهم في النهاية بكل سهولة..

-موافق.. لكم ما طلبتم..

وبالفعل تم صكُّ عملة معدنية تحمل صورة عبدالرسول الكبير، يوجد منها نسخة الآن في المتحف البريطاني.. من هذا الحين والعائلة تعتبرهما أبطالاً قوميين لدرجة أنهم ألفوا الأهازيج التي تتغنى بهم كأبي زيد الهلالي..

لكن محمود للأسف ينتمي لفرع العائلة الفقير.. لكن آن الأوان أن يغير كل ذلك ويثبت جدارته عن هذين الغبيين.. آن الأوان ليكون كبير عائلة عبدالرسول.. بالذات وقد أصبح قاب قوسين أو أدنى من العثور على هدفه مع الالتزام بتعليمات الشيخ بشير الصارمة..

المصاحف في جيبوبهم لا تفارقها وفي الجيب الآخر سعف نخيل.. وعندما يواجهون بقعة كريهة الرائحة يرشون ماء الورد حتى يطردوا الجن ساكني المكان.. لكن المسيرة لم تمض كما خطط تمامًا.. لأنه صدتهم في النهاية ثلاثة أحجار ملونة.. ثلاثة أحجار ضخمة عصية على الكسر.. أسود على اليمين.. أحمر في المنتصف.. والبني على اليسار.. وفوقها تربض أفعي مخيفة..

ففرَّ الرجال على الفور.. لكن محمود لاحقهم حتى أمسك بهم وطالبهم بالهدوء والبقاء حتى يرجع إلى الشيخ..

دلف محمود إلى دار الشيخ بشير بتؤدة ليجده خاشعًا وهو يؤدي صلاة العشاء.. فانتظره حتى فرغ منها.. ثم قال له وهو يصافحه..

-حرما يا شيخ بشير..

فرد عليه الشيخ وهو يتلو الأذكار وأنامله تفرك حبات مسبحته الكهرمانية..

-جمعًا يامحمود.. إن شاء الله نزور سويًّا البيت الحرام..

ها.. ما الأخبار.. هل عثرتم على الكنز؟!!!

فأحني محمود رأسه محبطًا..

-لا.. ليس بعد.. الأمر أكثر مشقة مما تصورت.. لقد وصلنا للفحم وتجاوزناه.. لكن صدتنا ثلاثة صخور وفوقها أفعي مريعة.. فقال الشيخ في تواضع وهو يهز رأسه بلهجة الحكيم العالم ببواطن الأمور..

- هذه المقبرة محصنة بعناية.. للأسف لن ينفع معها إلا حلّ واحد..

فأحني محمود جذعه للأمام وهو يسأله بصوت متلهف..

-انجدني.. أرجوك.. ما هو يامولانا؟!!!

فأجابه على الفور بصوته الهادئ الرخيم..

-أضحية؟!!! لن يفك تحصينها إلا الدم..

فقال محمود مذهولاً..

-دم؟!!!

فنظر الشيخ للأمام وهو لايزال يفرك حبات سبحته.. ثم قال بصوت بارد خالٍ من المشاعر..

-نعم.. دم..

دم بشري.

.

(٦)

كان خضر ذو الخمس سنوات يلعب الاستغماية مع أقرانه.. يقف أمام الجدار بجلبابه الرث وشعره القصير المبعثر مغمضًا عينيه ويهتف ببراءة..

-خلاويث..

لكن هذه المرة لم يرد عليه أحد.. حسنًا لقد اختبأ الجميع.. والآن قد حان دوره ليكتشف أماكنهم.. فانطلق يركض بطريقة مضحكة وهو يترنح كالبطريق..

ضحكات بريئة..

لهاث..

حبات العرق تنسدل على جبينه..

حتى باغتته زوبعة ترابية فخفت وتيرته ثم توقف تمامًا.. وهو يضع ذراعه أمام عينيه ليقيها أثرها..

فلما انقشعت وجد نفسه أمام رجلين ضخمين أحدهما يقول له في تهكم..

-ازيك ياواد ياخضر..

فارتعد..

لكن قبل أن يجيب جاءته يد خشنة من الخلف تكتم أنفاسه..

ثم غاب عن الوعي.

(٧)

إلي ذات المقبرة عادوا مرة أخرى.. لكن هذه المرة كانوا يحملون جُوالا حيًّا.. جوالا يتنفس.. لو اقتربت منه لسمعت صوت صراخ وبكاء مكتوم.. فهبطوا به إلى قاع المقبرة.. ثم ألقوه ككيس من النفايات..

ثارت شهية الأفعي المخيفة التي حدقته بعيون جاحظة والزبد يسيل من شدقيها.. تصدر فحيحًا مخيفًا ولسانها يتراقص للخارج..

الآن يبدو أن لديها فريسة جديدة.. فريسة طازجة.. جسد غض لطفل صغير.. بكي الطفل بشدة يتوسل إليهم بصوت يدمي القلوب الحية..

-وحيات أبوكم.. وحيات أبوكم.. ربنا يخليكم.. أنا معملتش حاجة.. والنبي..

لكنهم كانوا كالضواري أو أشد قسوة.. فأخرج أحدهم مديةً حديدية ذات نصل صدئ ليحدجه محمود بعين نارية..

-ماهذا يابغل.. ألم تشتر سكينًا جديدًا يامغفل؟!!!

فتوتر الآخر ثم أجابه في خنوع..

-سامحني ياريس.. هذا الذي وجدته عندي..

فقال له محمود وهو يجز على أسنانه..

-طيب.. اخلص..

فجلس الرجل فوق الطفل وأمسكه من عنقه كشاة.. يكرر ذات طقوس القتل التي لا تتغير من وقت قابيل.. اليد العصبية.. العروق النافرة.. العرق الغزير.. بينما الطفل عيناه بارزة من الخوف يرفص كالذبيحة..

ثم في خلال ثوان جز الخنجر عنقه لتنفجر الدماء من أوداجه كنافورة غمرت وجوههم القبيحة.. ومعها تدفق نهر من الدم ناحية الأفعي التي تجرعت منه

منتشية..

حتي جاء الشيخ فاغترف من دم الطفل غرفة بيديه ونثرها على وجه السكين وكتب هذه الأرقام بريشة..

-9111119961110111

ثم قلبها وخط على الوجه الثاني تعويذة أخرى..

99-طع لا111155611 وح

بعدها جثا على الأرض وطَفِقَ يرسم بطبشورة مصفوفة من أربعة صفوف ملأها بحروف وأرقام أخرى..

م	و	خ	ر
7	99	32	9
6	578	48	16
18	4	5	10

فلما انتهى منها تمتم بصوت وحشي مخيف..

-ياشاراشارايس اساشاليس أجب..

ياشاراشارايس اساشاليس أجب..

ياشاراشارايس اساشاليس أجب..

فلم تمض ثوان حتى ارتجف الشيخ بغتة كأنما مسه مس.. في ذات اللحظة التي انطفأت فيها المشاعل.. ليسيطر الهلع على الجميع.. وتعلو أصواتهم بالصراخ.. حتي أضاءوا المشاعل بالكاد بأيدٍ مرتعشة.. ليجدوا الشيخ يحدق فيهم بنظراته الوحشية..

-اصمتوا.. اصمتوا ياملاعين..

لاتخافوا يا بله.. لن يمسسكم شيء وأنا معكم..

الآن غادروا وتعالوا بالغد..

وبالفعل في اليوم التالي تبينوا مهارة الشيخ بشير.. تبينوها لأنه تلاشت جثة الطفل والأفعي تمامًا.. فتقدموا نحو الأحجار وحطموها بعزم ليظهر أخيرًا الباب السري.. باب المقبرة الحقيقي.. فدخلوها فرحين غير مدركين للتحذير المكتوب فوق الباب.. التحذير الذي يعني أنهم لم يفتحوا المقبرة.. بل فتحوا باب الجحيم..

«كل من يقرُبُ مقبرتي بسوءٍ ستلدغه العقارب والثعابين وسيلتهمه عمعموت».

(٦)

«لم يبلغ المصريون بعد درجة كافية من الحضارة حتى يهتموا بالحفاظ على آثارهم القديمة.. حتى أنهم ليس لديهم شعور بالذنب يرتبط بهذا الجرم ويعدونه ذنبا مغفورا»

اللورد كرومر

*****

الأقصر..

الصخب.. الازدحام.. الفوضى..

هذا هو حال السوق.. مثل أي سوق في كل العصور.. هتافات الباعة الجائلين تصدح في الآفاق.. عربات تجرها الدواب.. حوانيت تبيع الخضراوات.. أخرى بهارات.. وثالثة أسماك النيل الشهية.. رجال ونساء من كل الأعمار.. أزياء من مختلف الثقافات.. عمائم.. طرابيش.. بزَّات إفرنجية.. أطفال يركضون في حيوية.. نساء بملاءات على الرؤوس تلففن بهن أجسادهن الشهية ويخفين وجوههن وضحكاتهن وراء البراقيع ثم يتبخترن في نعومة وغنج كأفاعي راقصة..

أما في ركن قريب مزدحم بالأجانب.. فثمة عربات خشبية وحوانيت لعائلة عبدالرسول وغيرها.. حيث تباع آثار مصر علانية بسعر بخس.. حيث تباع التماثيل والقطع الذهبية باستهتار كأنها قطع من الخردة ويتم المساومة عليها بلا شعور بذنب أو أي تأنيب ضمير.. يمكنك مراقبة هذا إذا نظرت في أقصى المكان حيث تواجد ثلاثة رجال أجانب ومعهم خادمهم النوبي يتفاوضون مع أحدهم..

كان هذا بعد ساعتين منذ ركض عزام على درجات السلم الخشبية ليخبر سيده مستر هنري بالبشارة، متلعثمًا من فرط الحماسة حتى بدت أسنانه البيضاء كالمرمر..

- ل.. ل.. لقد اكتشفوا مقبرة.. ل.. لقد اكتشفوا مقبرة جديد في الدير البحري ياسيدي..

حينها لمعت عينا هنري بقوس النصر.. فتهلل وجه وانبسطت أساريره كما لم يحدث من قبل.. إنه النصر أخيرًا.. بعد طول انتظار.. أخيرًا سيصل إلى مبتغاه.. فعانق عزام رافعًا الكلفة بينهما دون أن يدري حتى اختلط عرقهما.. ثم تذكر

الفارق بينهما فتراجع للخلف وهو يتنحنح.. ليخبره بحزم وهو يرتدي بذلته..

-أشكرك ياعزام يا وجه الخير.. هذا أجمل خبر سمعته في حياتي..

ثم أردف وهو يغمز بعينيه..

-صحيح لا تنسى أن تستحم..

بعدها هتف على صاحبيه ألبرت ومستر شادويك ليلحقوا به..

كانوا ثلاثة.. ثلاثة أجانب.. هنري مستشكف شاب في أوائل الثلاثينات.. ذو شعر أسود مصفف على جانب وشارب خفيف وعوينات ذات إطار ذهبي.. أما صديقه ألبرت فهو المستكشف الوسيم الأشقر ذو اللحية الكثة وعينان كالصقر.. أما الثالث فهو المحامي شادويك الثعلب.. النحيل عصبي المزاج.. ذو الشارب الرفيع والعينين البارزتين لأنه مصاب بجويتر جحوظي.. لا يهوى الآثار ويكره كل المستكشفين لكنه أمين سر اللورد بايرون المهووس بالآثار والتحف الذي ينتظر عودتهم في القاهرة..

بعدها في غضون دقائق قليلة وصلوا للسوق بمصاحبة عزام يستقلون أربعة حمير مصابة بالهزال آلمت مؤخراتهم من شدة نحولها حتى صاح ألبرت في سخط..

-ألا تغذوا هؤلاء الحمير.. شوكة عظمية عالقة في مؤخرتي؟!!!

ليرد عليه هنري مقهقها..

-هاهاهاها.. تحمل يا ألبرت.. قريبا سنحوز على جائزتنا الكبرى..

وصل الأربعة في النهاية إلى التاجر المنشود الذي كان متحفظًا في البدء.. ربما لأن التجارة علمته ألا يبوح بأسراره مرة واحدة.. كما أن السلطات المصرية والإنجليزية التابعة لمصلحة الآثار في أوج نشاطها، ويمكن أن تعتقله بسهولة وتودعه السجن إلى أمد لا يعرف نهايته إلا الله وحده.. بالذات بعد القانون الذي استصدره يوجين جريبو مدير مصلحة الآثار الفرنسي الجنسية الذي

يحرم الإتجار في الآثار..

-هل تريدون مساخيط؟!!!

هكذا سألهم محمود بعين مرتابة وهو يفحصهم من رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم كجهاز أشعة مسح ذري مستعرضًا بضاعته من التماثيل الجرانيتية والبرونزية والحلي والمجوهرات..

لكن عزام اقترب منه هامسًا في أذنه والثلاثة يحدقون نحوه..

-لا تخشي شيئا يا أبا عبدالفتاح.. هؤلاء الخواجات تبعي وسينفذون كل طلباتك..

فاستمر محمود بتفحصهم بنظراته المتشككة..

-ومن يضمن أنهم لن يشوا بي.!!!

-لا تخف.. لم أعهدك جبانًا.. ومن سيستفيد من ذلك؟!!!

نحن نريد إنهاء الأمر حتى يعم الخير الجميع.. أنت تحصل على أموالك وهم مساخيطهم وأنا حلاوتي.. هم مستكشفون يتبعون ثريًّا مقيمًا في القاهرة أضمنهم برقبتي.. كما أنهم إنجليز ويكرهون بشدة الفرنسيين الأوغاد الذين يديرون المصلحة..

حينها تكلم شادويك بغلظة..

-ماذا يقول ياعزام؟!!!

فرد عزام في توتر..

-لا شيء.. لا شيء ياسيدي.. هو فقط متردد قليلاً..

كاد شادويك ينفجر غيظًا.. في عقله يسب القدر الذي أوقعه أسيرًا لأهواء مصري صعلوك يلهو بهم ويساومهم.. فمضى خطوتين نحوهما قائلاً في لهجة حاسمة وعيناه تحدجان محمود بازدراء مشوب بعنصرية قحة..

-لا تخف ياهذا.. أنا أكره الفرنسيين كالطاعون.. كما أن جريبو هذا مدير الآثار شخص مغفل..

لوهلة تردد محمود.. بدا عاجزًا على أن يتخذ قرارًا.. قرارًا يُدر عليه صراعًا هائلاً داخل عقله..

-اخص.. جبان كالجرذان.. تنتظر هذه الفرصة منذ السنوات وعندما تسنح أمامك ترتجف كالحريم..

-لا.. ليس الأمر هكذا.. هؤلاء الغرباء قد يزجون بي في السجن..

-سجن.. أي سجن يا أحمق.. السجن أم الموت؟!!!ألم تر بنفسك ماذا حدث لك منذ أن عثرت على هذه المصيبة؟!!!أنت تنقذ روحك قبل أي شيء حينما تتخلص من هذه الملعونة.. لو علم هؤلاء الأجانب بحقيقتها لدفنوك حيًّا.. اخلص.. هذه صفقة حياتك.. صفقة مزدوجة..

فقال محمود في النهاية حاسمًا أمره..

-حسنا.. تعالوا معي..

ليتجهوا جميعا معه نحو الجائزة الكبرى..

المقبرة.

(٧)

«أنا كاهنٌ مرتلٌ رفيع المستوى، أعرف أسرار التعاويذ وكل أنواع السحر.. بالنسبة لمن يدخل مقبرتي غير طاهر، سوف أقبض عليه كأوزّة وأقذف الرعب في قلبه كما لو أنه يرى الأشباح على الأرض»

من مقبرة «عنخ ماحور» في منطقة سقارة

*****

في المقبرة..

تدلت أشداق الجميع انبهارًا.. حتى شادويك المحامي الفج شهق عندما رأى التابوت.. بالتأكيد سيرقص سيده فرحًا ويحتفل كالدببة.. بينما مد هنري يده المتعرقة عليه وهو يتحسسه كأنما يتحسس وجه عشيقته وهو يتمتم منتشيا..

-جميل.. جميل جدا.. هذا أجمل ما رأيت في حياتي على الإطلاق!!!!

فيما جثا ألبرت على ركبتيه الناحية الأخرى يفحص النقوش على التابوت وهو يقول بصوت مرتفع..

-الكتابات كلها دينية.. كأنها نوعٌ من الصلوات.. لا توجد معلومة واحدة عن هوية صاحبها..

فرد عليه هنري وعيناه لا تزالان شاردتان في التابوت..

-لكني متأكد أنها لشخصية هامة.. من العائلة المالكة غالبًا..

-عندك حق.. مهما تكن هوية المومياء فهذه هي أسعد لحظة في حياتنا.. سوف ندخل التاريخ من أوسع أبوابه..

أزال المستكشفان الأجنبيان غطاء التابوت بمساعدة عزام ليجدوا أنهم يحدقون في جثة مدثرة بأربطة الأقمشة والضمادات بالكامل، تحيطها من الجهات الأربعة تماثيل الأوشابتي المُسخَّرة لمرافقتها في العالم الآخر..

راقبهم محمود من بعيد وهو يزفر متأففًا.. يتمنى أن تنقضي هذه اللحظات سريعًا وقد انتهوا من هذه المعاينة السخيفة.. الآن أقصى آماله أن يتخلص من هذه المصيبة بأسرع وقت.. فمنذ أن اكتشف هذه المومياء الملعونة والمصائب تتوالي عليه تباعًا كالمطر المنهمر.. فمعاونيه اثنان منهما لقيا مصرعهما غرقًا في النيل بينما الثالث نام ولم يستيقظ.. مات أثناء نومه.. أما

هو فلم تترك الدمامل جزءًا من جسده إلا واحتلته، حتى أصبح وجهه مشوهًا شبيهًا بوجه أسد عجوز مع تساقط أطرافه.. كان الأمر واضحًا للغاية لا يحتاج إلى طبيب.. لقد أصيب بالجُذام..

سألهم شادويك في نفاذ صبر..

- مارأيكم.. هل ستبتاعونها؟!!!

-بالتأكيد.. هذا أروع أثر رأيتي في حياتي..

هكذا أجاب ألبرت في حماسة طاغية..

فشد شادويك قامته ثم اتجه إلى محمود وهو يسأله بلهجة خشنة ممزوجة بنظرة عدائية..

-ماذا تريد في هذه الجثة؟!!!

تردد محمود لوهلة.. هذه أول بضاعة ذات قيمة يبيعها في حياته.. فأجاب متلعثما..

-مئة.. مئة جنيه..

انهال السعر كالصاعقة على المحامي.. هذا السعر لم يتوقعه بالتأكيد..

المجنون يريد مئة جنيه في مومياء.. فقال متهكما وهو يحدقه بازدراء..

-مئة جنيه؟!!!

لا.. احتفظ بها.. خذها وزين بها متجرك الحقير..

لكن ألبرت وهنري حاولا منعه فقبضا على ذراعه..

-انتظر يا مستر شادويك.. هذه تحفة حقيقية لا تقدر بثمن.. كل فلس مدفوع فيها تستحقه..

فقال بصوت غاضب مرتفع ولا تزال نظرة الازدراء تعلو وجهه..

-لا.. لن أسمح لهذا الصعلوك اللص أن يبتزني..

فليهنأ بها.. لكن في السجن.. بعد أن أبلغ عنه السلطات..

-انتظر..

هكذا صاح محمود..

فمضي نحو شادويك ببطء وهو يقول..

-حسنا سأقلل المبلغ قليلا.. ثمانون جنيه..

-خمسون..

-سبعون..

-خمسون ولن أدفع جنيها واحدًا زيادة..

هكذا صاح شادويك بلهجة قاطعة..

فتجمد وجه محمود للحظات.. وعقله يحسب كل الاحتمالات..

ربما في ظرف آخر لم يكن ليرضخ لهم.. لكنه الآن في موقف لا يُحسد عليه.. الحقيقة أنهم لو ضغطوا عليه قليلاً وعرضوا عليه حتى عشرة جنيهات كان سيقبل.. المهم أن يتخلص من هذه الكارثة بأي ثمن.. بأي ثمن..

فدوى صوته هادرا بلهجة حاسمة..

-موافق..

حينها تهللت أسارير هنري وألبرت واجتاحتهما الفرحة كأنهما عثرا على كنز الملك جون.. بينما مد محمود يده ناحية شادويك الذي رفض مصافحته وسبه في سره..

-مصري وضيع..

بعدها بساعة كانت عينا محمود تراقبهم وهم يبتعدون بعيدًا بالتابوت رويدًا

رويدًا ويده لا تزال قابضة على النقود..

وعندما تواروا عن ناظريه.. وضع يده على أنفه ليجد أنها تنزف دمًا.. تنزف بغزارة.. ثم خرَّ مغشيًّا عليه..

للأبد.

(٨)

برقية..

سيدي اللورد بايرون.. أخبار سارة.. الجائزة الكبرى محملة على الباخرة النيلية «إيزيس».. سنتحرك الليلة..

تحياتي

المخلص لك

شادويك

*****

-ألبرت.. أشعر كأني في حلم.. اقرصني حتى أستيقظ.. هذا أفضل شيء حدث في حياتي..

-بالفعل.. فاتنة بدرجة عجيبة.. لولا أنها مومياء لتزوجتها.. صورتها لا تبرح تفكيري.. كأنها نومتني مغناطيسيًّا.. ربما كان فعلاً حلمًا.. حلمًا جميلاً..

ربما..

(٩)

-ألبررررررررررت.. ألبررررررت..

استيقظ ألبرت من نومه مفزوعًا.. فيما ساعته الكاتينة تشير إلى الثانية صباحًا.. لوهلة ارتعد.. هو بمفرده.. كما أنه لا أحد يعلم في هذه البلدة التي تبتعد عن وطنه آلاف الكيلومترات اسمه.. فمن يناديه إذن؟!!!!

أرهف السمع للحظات كقط لكنه لم يسمع شيئًا.. فارتمى على الفراش مجددًا ظانًّا أنه حلم عارض.. أو رؤية مشوشة..

لكن بعد أقل من عشرة دقائق تكرر الصوت مرة أخرى..

-ألبررررررررررت.. ألبررررررت..

كان الصوت أكثر وضوحًا هذه المرة.. صوت أنثوي ساحر يبدو كأنه يتردد من أصقاع الجبل.. صوت أوبرالي ممطوط وناعم يهتف بنعومة وغنج.. فحك ذقنه وهو يبتسم.. هو يعلم منذ البداية كم هو مثير.. يعلم أن لحيته تفتن الكثير من الشرقيات لأنها تشي بفحولته.. كما أن الصوت يعده بالكثير.. لا بد أنها كانت ترتدي البرقع ورأته في السوق ووقعت في غرامه بلا شك.. لكنه مغفل كالعادة لم يلتفت إلى عينيها الغجريتين اللتين كانتا تراقبانه.. واكتفى بتتبع الرجل القذر الذي تشبه رائحته رائحة الظربان إلى المومياء اللعينة.. من الواضح أنها مغرمة به بشدة.. بل بجنون..

صوتها يخبره أنها فاتنة.. خمرية اللون.. عيناها عسليتان.. ملفوفة القوام.. قنبلة أنثوية رخوة عارمة..

ياللبؤس!.. تقف في الظلام بمفردها ينخر البرد في عظامها، لا يدفعها إلا الحب الخالص كي تناديه بينما هو يغط في فراشه الوثير؟!!

سحقًا له!!! بل ألف سحقٍ له!!! كم هو أحمق سفيه!!!

كم مرة في حياتك يمكن أن تحصل على حب طاهر صادق بهذا النقاء!!!! كيف يمكن لجنتل مان إنجليزي ألا يلبي ندائها.. نداء العشق والحب؟!!!! فخفق قلب ألبرت بقوة.. تدفقت الدماء بشراهة في عروقه.. كميات هائلة من الأوكسيتوسين هرمون الحب والألفة سرت في دمه.. لابد أن كيوبيد كان يهز مؤخرته الناعمة وفي أفضل حالاته وهو يطلق السهام في كل حدب وصوب حتى أصاب موضع قلبه.. مركز العاطفة بامتياز..

-ألـبـرررررررررت.. ألبرررررررت.. ألـبـرررررررررررت.. ألبرررررررت.. حبيييييييييييييييبي..

ارتدى ألبرت بذلته السوداء ورابطة العنق وحذائه اللامع الذي يجعله أكثر رجال بريطانيا أناقة.. ثم صفف شعره على جانبٍ ودهنه بالفازلين..

لكن صاحبة الصوت لم تكف عن ندائها وفي كل هتاف كان يزداد حرارة وولـع.. هذا هو الحب الحقيقي الذي يبحث عنه طيلة عمره ولتذهب جابرييل واضطراباتها الهرمونية وثوراتها العصبية وأبيها السمج إلى الجحيم.. نظر إلى صورته إلى المرآة نظرة أخيرة..

أووووووه.. وسيم للغاية.. محظوظة أنتِ يافتاة..

بالتأكيد لقد سحرها.. ففتح الشرفة لكنه لم ير شيئًا.. كان القمر يتوارى وراء الغيوم كعروس خجول في هودجها، أما الجبل فبدا كظل وحش غافٍ في الظلام الموحش..

اختيار موفق.. هذا أفضل حتى يكونوا على سجيتهم..

- ألبرررررررررت.. ألبرررررررت..

فتح باب غرفته.. نزل درجات السلم بتؤدة حتى لا يوقظ أحدهم.. حتى عامل الفندق الذي كان يطلق شخيرا مزعجا كالضفادع لم يلاحظه.. ثم ارتدى قبعته وخرج من الفندق كالسهم..

-فكتوريا.. حبيبتي.. أو أيًّا كان اسمك.. عائشة.. رقية.. أو أي اسم مصري..

أميرك ألبرت في الطريق إليكِ.. لا تجزعِي.. أنا قادم.. أنا قادم..

*****

كان عزام نائمًا على أريكة في مدخل الفندق يغطّ في نوم عميقٍ كدبّ بعد وجبةٍ دسمةٍ بعد أن نجح في إبرام صفقة عظيمة لرؤساءهً..

نفحوه ثلاثة جنيهات كاملة.. ووعدوه بعد أن يعودوا إلى القاهرة أن يخبروا اللورد بايرون بأمره وبمجهوده حتى يوظفه في إحدى شركاته تمهيدا لنقله معه إلى لندن.. لكن في هذه اللحظة أيقظه هاجس ما.. ريح باردة ضربت جسده فارتجف.. فاستيقظ حين بغتةٍ ثم جلس منتصبًا جسده متحفزٌ وأعصابه مشدودة كقط بريّ.. مقلتيه حمراوتان ككئوس دم وفم مفتوح ببلاهة.. يبدو كأنه منوم مغناطيسيًّا.. لم يكن وقتها بالتأكيد في وعيه..

كأن شخصًا ما ولج إلى رأسه واحتلها ويتحكم به الآن كالدمية.. فارتعش كأنما مسته صاعقة كهربية ثم أطلق شهقة مريعة كالممسوس.. كما أن لونه تبدل وصار أكثر شحوبًا.. عيناه صارت بيضاوتان تمامًا كالغمام.. كان الصوت يتحكم فيه.. يأمره.. يوجهه:

«انهض الآن.. سر بخطوات هادئة.. اتجه إلى المطبخ.. هناك في نهايته..»

كان يتحرك بصورة مريبة كالروبوت.. لو رأيته لوليت فرارًا ولمُلئت منه رعبًا.. حتى أنه صدم منضدة خشبية بقوة ولم يبال.. كأن جسده من الفولاذ..

«استل هذا السكين.. لا بل هذا الساطور.. هذا أكثر حدة.. هذا يقطع بسرعة..»

ثم خرج من المطبخ.. ألقى نظرة مخيفة على العامل النائم.. الذي يشخر كالعادة.. ثم سرق سلسلة المفاتيح من اللوحة الخشبية.. والعامل لا يتحرك كأنه في عوالم أخرى.. ثم غير اتجاهه نحو الدرج بحركة آلية.. استند على الترابزين.. ثم صعد بخطوات بطيئة.. لكنك لا تعرف هل كان يصعد بالفعل أم أنه يطفو في الهواء.. حتي وصل إلى الطابق الثاني.. ثم وقف حائرًا في

الرواق أيُّ غرفة يدخلها..

بدا كأنه دمية نفذت بطاريتها دفعة واحدة.. كأنما تحول إلى صنم.. حتي عاد الصوت مجددا يخبره بنبرة كالفحيح..

«إلي اليمين»..

مضى بخطوات بطيئة كالزومبي.. ثم وقف أمام الباب يحدق فيه ببلاهة واللعاب يتدلي من شفتيه.. حتي أولج المفاتيح في الكالون و..

تك.. تك..

انفتح الباب.. ودلف إلى الداخل.

*****

كان البرد قارسًا.. أسنانه تصطك وكل فرائصه ترتعد.. كأنها أنفاس الإله رينو إله الرياح القارسة عند قدماء المصريين.. لكنه مع ذلك لم يُبال.. ولم يتوقف واستمر في مضيه نحو الصوت.. وكلما اقترب اشتعلت حماسته وزاد أمله فتتدفقت موجات الأدرينالين أكثر في دمه وهو يتخيل صورتها..

لابد أنها رائعة الجمال.. لابد أنها تشبه إيزيس نفسها.. الصوت يخبره كذلك.. هو واثق كل الثقة..

-ألبررررررررررت.. ألبرررررررررت..

كان يحث الخطى.. خطواته تتسارع.. حتى بدأ يركض.. يركض بعنف.. يركض كفهد.. لدرجة أنه شعر أن ذبحة صدرية على وشك أن تصيبه.. فهو لم يركض بقوة هكذا منذ فترة طويلة.. ورغم ذلك فكان يبتسم رغم لهاثه وخفقات قلبه المتسارعة..

هذه الفاتنة تستحق.. إن لم يهرول لأجلها فلمن يهرول.. كما أن صوتها بدأ يقترب أكثر وأكثر ويزداد ارتفاعًا.. صوت سوبرانو أصيل.. ينفجر في جوف الظلمات..

-ألبررررررت.. ألبررررررت.

*****

كان شادويك يغط في نوم عميق.. في مرحلة حركة العين السريعة بالتحديد (REM) حيث تحدث الأحلام.. في هذه اللحظة رأى نفسه على متن باخرة يحدق في ساعة بيج بين الأثرية الشامخة وهي تشق الضباب والريح تدفع ملابسه.. كان فخورًا بنفسه إلى أقصي درجة.. فالتقط نفسًا عميقًا وهو يشعر بنشوة الهواء البارد الذي يتخلل رئتيه وتمتلئ به الحويصلات الهوائية.. شعر أنه أكثر صحة.. أكثر قوة.. أعظم من أي مخلوق على ظهر الأرض..

ثم كعادة الأحلام وعدم منطقيتها وجد نفسه متكئاً على عصا عاجية داخل سيارة بخارية.. حتى التفت إليه سائقه بقبعته وبذلته السوداء وهو يسأله في ذلة وخضوع..

-إلي أين نتجه يا سيدي؟!!!

كان المضحك في الأمر أن السائق هو اللورد بايرون نفسه.. ليجيبه باستعلاء وصوته يخرج من أنفه..

-إلي قصر باكينجهام أيها الأبله..

بعدها وجد نفسه دفعة واحدة في قاعة الاحتفالات داخل القصر نفسه، والملكة فكتوريا ذاتها بشعرها المفروق وجسدها القصير البدين تقلده ميدالية فارس الصليب الأكبر بينما هو شامخ كنخلة باسقة.. لينحني الوزراء وتضج القاعة بتصفيق الحضور فيما هو ينظر نحوهم منتشيًا.. يشعر أنه فوقهم.. فوق السحاب حرفيًّا..

بغتةً شعر باضطراب ما فوق صدره.. فنظر إلى القلادة فوجدها تتحرك وتهتز كمارد.. ثم انشقت كقشرة البيضة وخرج منها جعران.. خنفساء حية تتحرك.. وقبل أن يصدر أي ردة فعل.. دلفت تحت قميصه المرصع بالنياشين والقاعة تضج بالضحك.. الملكة.. والوزراء.. وحتي اللورد بايرون.. يشيرون

إليه ويقهقون.. بينما هو يهتز ويقفز بطريقة كوميدية كأنه يرقص.. لكنها رقصة رعب.. ثم شعر بها وهي تمشي بسرعة فوق جسده.. حتى عضته.. ثم ولجت تحت جلده تشق طريقها.. اللفافة السطحية.. اللفافة العميقة.. العضلة الصدرية الكبيرة.. الضلوع.. غشاء التامور.. القلب.. ثم..

اخترقته كحربة.. فشهق..

ألم شديد في صدره.. قطرات عرق باردة.. الضباب يحيطه من كل اتجاه.. روحه تتسرب منه سريعًا.. حتي لمح في نهاية القاعة ظلاً أسود ضخمًا ينظر إليه بوحشية.. نظرة فككت أوصاله.. حينها فتح عيناه بغتة.. ليراه.. عزام يمسك بسكين..

ويبتسم..

*****

مضى ألبرت في طريقه مغيبًا، بين نقيق الضفادع وصفير صراصير الحقل وبومة تراقبه عن كثب ثم نعقت وحلقت بعيدًا، حتي وجد نفسه في الدير البحري..

أمام مقبرة..

ضربه الخوف لوهلة.. فكر للحظة أن يتراجع.. لكن كل حواسه تعطلت.. محيت كل الأفكار ولم تتبق إلا فكرة واحدة تلتهم دماغه.. هذه هي الفتاة التي حلم بها.. هذه هي فتاته المنتظرة.. الحب الموعود.. الحب الحقيقي.. يجب أن ينالها بأي ثمن..

ألبررررررررت.. ألبررررررت

عاد الصوت مجددًا أكثر وضوحًا عن كل مرة.. أحرف موسيقية تتطاير في الهواء.. ذبذبات منومة..

ألبررررررررت.. ألبرررررررررت

كان الصوت من أكثر بقعة مظلمة.. من آخر مكان يتخيله.. من داخل المقبرة.. نفسها..

*****

اتسعت عينا شادويك الجاحظة أصلاً بسبب مارآه.. تخيل أن تستيقظ في جوف الليل مفزوعا بكابوس لتجده تحول إلى حقيقة في صورة مجرم يمسك بساطور حاد يستعد للفتك بك.. لم يستغرق الأمر كثيرًا.. استحال شادويك إلى فأر مرتجف يتوسل حتى تبول على نفسه..

-بلييييييييييز.. عزام.. اهدأ ياعزام.. أرجوك.. عزاااااام.. سأمنحك كل شيء.. كل ما أملكه من ثروة.. أرجوك لاتقتلني.. امنحني بعض الوقت..

لكن توسلاته ذهبت هباء.. وحل محلها غضب وسباب..

-ماذا بك ياأحمق؟!!! ماذا بك ياملعون؟!!! ألقي السلاح.. أنا آمرك.. أنا سيدك الإنجليزي.. ألقه وإلا قتلتك..

لكن تهديداته الجوفاء ذهبت هباءً منثورًا..

حاول الفرار لكن بلا جدوى.. فأمسكه عزام من تلابيبه بقبضة غير بشرية.. كأن روح ست إله الشر ذاته سكنت جسده.. حتى رفعه إلى السقف والآخر ينتفض بلا أمل.. ثم أخذ يصدمه بالحائط عدة مرات كالدمية حتى سمع أصوات تهشم عظامه..

-كرااااااااش.. كرااااااااااش!!!!

*****

حسم ألبرت أمره.. سيتبع صاحبة الصوت مهما حدث.. حتى لو كان إلى أكثر الأماكن ظلمة.. حتى لو كان إلى أكثر مكان يخشاه بشري.. حتي لو كانت المقبرة.. ذاتها.. فدخلها.. ثم في غضون ثوان دوت صرخة شنيعة.. صرخة لا تنتمي إلى عالمنا..

*****

بدأت قوى شادويك تتراخى.. وعيه وروحه يتسللان منه مع ضربات عزام المتتالية..

بوووووووم..

باااااام..

بووووووووو..

ربما هو يحلم.. نعم هو بالتأكيد يحلم.. هو لا يزال في قصر باكينجهام بحضرة الملكة فيكتوريا.. والآن سيستيقظ.. -هيا استيقظ يا شادويك.. استيقظ..

لكن محاولاته باءت بالفشل.. حتى أيقن في النهاية أن ما يحدث له حقيقي.. حقيقي جدًّا.. بالذات عندما رأى عزام يرفع الساطور.. عندما رأى نصله يلمع في الضوء الشحيح.. حتي هوي به على عنقه و..

انتهى كل شيء.

*****

(١٠)

وقف هنري على سطح الباخرة «إيزيس» التي تشق عباب النيل عابس الوجه ملامحه جامدة من أثر الصدمة.. مستحيل أن يصدق ما حدث.. ما حدث لا يحدث حتى في مسرحيات شكسبير.. لقد ذهبوا ثلاثة والآن يعود وحيدًا بمفرده.. قُتل شادويك.. وانتحر عزام.. واختفى ألبرت كأنما تبخر في الهواء.. رجال البوليس يرجحون أنه اختُطف.. آخرون اتهموه صراحةً أن يكون هو المسئول عن الجريمتين لكن جنسيته الإنجليزية خلصته من براثنهم.. أيًّا كان فالنتيجة واحدة.. فالآن أضحى وحيدًا بصحبة مومياء منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة..

كان هنري طيلة عمري مولعًا بدراسة المصريات.. فُتن بها منذ الوهلة الأولى عندما زار المتحف البريطاني في صباه.. من وقتها أدرك أن هذا هو شغف حياته..

كانت حينها الاكتشافات الأثرية في البلد التاريخي المحتل لا تتوقف.. نبع ماء غزير لا ينضب.. حلم أن يصير يومًا ما مثل أحد المستكشفين العظماء.. أن يشار إليه بالبنان ويحكوا عنه مثل شامبليون.. أن يدخل التاريخ من أوسع أبوابه ويتدارسوا سيرته ومغامراته في الكتب..

لهذا ففي البداية قَبِل أن يعمل مع العالم السويسري إدوارد نافيل.. استمتع معه بكل لحظة رغم أنه كان يتقاضى مبلغًا ضئيلاً.. لكن لا يهم.. المهم حقا أنه يفعل ما يحبه في المكان الذي يهيم به.. حتي كُللت بعثتهم بالنجاح حينما عثروا على معبد حتشبسوت ومعبد منتوحتب الثاني..

لكن بعدها ملَّ.. كل اكتشافاتهم تنسب فقط للعالم السويسري.. والعمر يمر ولم يحقق ذاته ولم يصنع اسمًا.. لهذا حسم أمره.. يجب أن ينفصل ويلزم طريقه هو..

كان من المفترض أن تكون هذه أسعد لحظاته باكتشافه الأول.. لكن الأحداث

الدرامية أفسدت كل شيء.. ألقى الفراعنة بلعنتهم عليهم كما أغرق خفرع من قبل السفينة «بياتريس»..

اغرورقت عينا هنري بالدموع وهو يتذكر.. بث النيل حابي العجوز في روحه الهموم وحرك ذكريات راكدة ظنها اندثرت.. فهو يعلم يقينًا أنه لم يرحل إلى مصر فقط لحبه للآثار.. لكن هناك سبب خفي يدركه جيدًا ويهرب من مواجهة نفسه لأجله.. لقد فر إلى مصر حتى ينسى فشله.. ضياعه.. موته الأول..

لقد هرب إلى مصر بعد أن خسر جوليا حبيبته الأولى والأخيرة بسبب أبيها المتعجرف.. الذئب العجوز.. عضو مجلس النواب.. بحاجبيه الكثين وجلده المتهدل ونظرته المتعالية.. الذي رفض كل محاولاته للزواج من مهجة قلبه.. جووووووووليا.. وقود روحه.. أيقونة حياته.. بيت شعر إنجليزي.. رمز الجمال النقي.. لوهلة ظن أنها تبادله المشاعر.. ربما كانت تستلطفه فعلا.. كان يرى أن قصتهما أكثر حميمية من أسطورة روميو وجولييت.. لكنها لم تحارب لأجله بالقدر الكافي.. مع الوقت تبين الحقيقة المرة.. للأسف يبدو أن حبه حب من طرف واحد..

لا يوجد أقسى في الدنيا من أن تهيم بشخص ما يمثل لك كل شيء في العالم بينما هو يراك شخصًا عاديًّا؛ بل مغرقًا في العادية.. لو غاب عنك يومًا تشعر بثقب أسود في روحك يكاد يبتلعك.. بينما لو غبت عنه لن يسأل عنك إلا بمقدار سؤاله عن عامل القمامة حين يتغيب، لأن المهملات تراكمت ورائحتها مزعجة.. في كل لحظة تحترق روحك.. ثم تبعث من جديد كالعنقاء لتتعذب مجددًا..

في كل لحظة بُعد عنها يلتهم النسر كبدك كبروميثيوس.. تتعذب في الدرك الأسفل من الجحيم.. يبتلعك الحوت ثم يهوي بك في أعماق المحيط.. لكنها لا تشعر وأكثر آمالك أن تنظر لك يومًا بعين الشفقة..

في هذه اللحظة لفت انتباه هنري فتاة آية في الجمال.. كاللؤلؤ المكنون..

ممشوقة القوام كغزال بري.. عيناها كحيلتان برماد جثث عشاقها.. واقفة على الحافة.. تبكي.. تبكي كطفلة.. فاستغرق يراقبها.. ثم اقترب بضع خطوات حتى يراها عن قرب.. لكنها فاجأته وتسلقت حافة الباخرة.. ثم حدث ما لم يتوقعه..

أبدا.

*****

(١١)

اندفع هنري إلى القبطان يلهث ويتعرق بغزارة، بينما الآخر يتجرع زجاجة الخمر ويسأله باستهتار..

-ماذا حدث يارجل.. لماذا تتعرق هكذا كأن زوجتك ضبطتك في وضع مخل؟!!!

فقال هنري بصوت متلعثم..

-لقد ألقت فتاة في النيل بنفسها توًّا..

لكن القبطان نظر إلى مساعده ثم استغرقا في نوبة هائلة من الضحك.. كأنما قام أحدهم بدغدغتهم.. كل أنواع الضحك السخيفة.. هاهاها.. هوهوهو.. هي هي هي..

فرمقهم هنري غاضبًا وهو يلعن حظه الذي أوقعه في مركب يقودها مجموعة من السكارى..

-الوقت ينفذ يا حمقى.. لو كان بإمكاني السباحة لما لجأت لسكارى مثلكم.. أقول لكم هناك فتاة تغرق فتضحكون..

فوضع القبطان يده على كتفه وهو يكتم ضحكاته بمشقة..

-أخبرني يا رجل.. ما نوع الشراب الذي تتناوله؟!!! بالتأكيد هو أفضل جودة من هذا اللعين الذي أشربه..

فنهره هنري ثائرًا..

-أنا لست سكرانًا يا أحمق.. لو لم تصحبنِ الآن سألقي بجسدي ورائها وسأورطكم في مصيبة..

فاتسعت ابتسامة القبطان كاشفة عن أسنانه النخرة..

-لا.. لا نحتاج إلى جثة وتحقيقات.. أنا أعاني من صداع نصفي أصلا..

ثم وضع الزجاجة جانبا محاولاً أن يصطنع الجدية وهو يكتم ضحكته..

-كما أخبرتك يا مغفل.. الأمر لا يستحق.. ما تقوله أصلا من رابع المستحيلات..

-لماذا؟!!!

لقد رأيتها بعيني..

فصمت القبطان لوهلة واحتسى جرعة أخرى من خمره.. ألقى بعدها جملته كالقنبلة..

-لأنه لا توجد فتاة أصلاً على ظهر الباخرة.

*****

(١٢)

«كل من يقرب مقبرتي بسوء ستلدغه العقارب والثعابين وسيلتهمه عمعموت»

كان هنري يرتجف في فراشه وهو يسعل بشدة.. يشعر بأن شعيباته الهوائية غابة تحترق.. ومع ذلك فسقمه لم يمنعه عن التساؤل.. هل للموميا علاقة بكل هذا؟!!!

نهض من فراشه بمشقَّة.. ثم أمسك بمصباح شحيح الضوء، وهبطٍ إلى مستودع الباخرة.. ليجد التابوت مستقرًّا في مَكانه كما هو.. محفوظًا في وعاء خشبي ومغطى بالتبن.. فأبعده بيده ثم أزاح الغطاء ونظر إلى التابوت الخلَّاب..

كان التابوت رائعًا.. رائعًا بالفعل.. كأن دافنشي بذاته هو من صممه.. حالته المدهشة تخلب العيون.. مثالاً ممتازًا للكمال الفني.. لكنه في هذه اللحظة سرت في جسده قشعريرة باردة.. فلأول مرة يركز في صورة الفتاة.. لدرجة أنه شهق من الرعب.. فالفتاة المرسومة على التابوت هي ذاتها الفتاة التي ألقت بنفسها من الباخرة.. أو فلتقل تشبهها بشدة لولا أنها ترتدي ملابس عصرية..

شعر بقلبه يركض كجواد مذعور.. الرعب بسط جناحيه على نفسه كجناحي إيزيس.. ففتح غطاء التابوت ببطء.. حتى يتخلص من هذا الهاجس..

زيييييييييييييي..

صدر من التابوت صريرًا مريعًا كأنين الشياطين.. حتى أوشك أن يثقب أذنه ذاتها.. ثم تجمدت ملامحه من الهول.. كأنما رأى الموت نفسه.. فما رآه كان آخر شيء يتوقعه.. على الإطلاق.

(١٣)

أمسكت المومياء بمعصم هنري بقبضة فولاذية.. قبضة تعدل مئة رجل.. ثم صرخت فيه بصوت منذر عميق.. آت من أعماق سقر ذاتها.. بلغة لم يسمعها من قبل لكنه علم في نفسه أنها المصرية القديمة.. ومع ذلك فقد فهم معناها جيدًا..

-أنت ميت لا محالة..

استيقظ هنري من نومه مذعورًا غارقا في بحر من العرق يتلفظ بهذه الكلمات وهو يبكي حتى انتبه أنه يهذي من الحمى، وأن ما رآه كان ثمة كابوس.. فزأر بكل غلٍّ..

-اللعنة على هذه المومياء..

فالتقط من جواره دورق مياه.. ثم تجرعه دفعة واحدة ككلب ظمآن.. حتى لاحظ بطرف عينه أن باب قمرته مفتوح وما يشبه ظلاً جاثمًا أمامها.. ظلاً بدا واضحًا أنه بشري.. امرأة بالتحديد..

فنهض من فراشه منطلقًا ناحية الباب كالسهم.. ليجد أن الفتاة تركض في اتجاه مقدمة المركب.. نفس الفتاة التي رآها وهي تنتحر.. فهتف..

-انتظرِي ياسيدتي.. أيتها المرأة.. انتظررررررري..

لكنها لم تعبأ به.. فاستمر في مطاردتها حتى توقفت في نهاية المطاف عند حافة السفينة مُطرقة رأسها لأسفل.. فتقدم نحوها وهو يتوسل إليها أن تتوقف..

-أرجوكِ ياسيدتي انتظري.. أرجوكِ لاتهربي من جديد.. لقد اتهمني كل من في السفينة بالجنون لأنني أخبرتهم عنكِ.. بحق السماء من أنتِ؟!!!

كانت الفتاة مظلمة أكثر من اللازم.. فستانها مبتل، وقطرات الماء تنسدل من

شعرها كأنها خارجة توًّا من البحر.. لكنها لم تجبه.. فقط أدارت له وجهها ونظرت نحوه بثغر باسم.. وجه آخر شخص يتوقع أن يراه في حياته.. حبيبة عمره.. جوليا.. ذاتها.

*****

فرك هنري عينه وهو لا يُصدق.. بالتأكيد هذا حلم يحلمه.. بينما تحدثت الفتاة وهي تلومه بصوت متألم..

-لماذا تركتني يا هنري.. لماذا سافرت وتركتني؟!!!

فأجابها وهو يبكي..

-لم أتركك يا جوليا.. يستحيل.. أنت حلم عمري.. حبّي الأول والوحيد والأخير.. أنتِ من تخيلتِ عني.. وأذْعَتني لأبيك المتسلط..

-لا.. أنت تسيء بي كعادتك دائمًا.. أبي هو من أرغمني على ذلك.. أنا لم أنسك أبدًا.. في كل ليلة كانت تغرق الوسادة في بحر دموعي.. بكيت حتى جفت دموعي.. حتى تقرحت جفوني.. أرسلت إليك عشرات الرسائل لكنك لم ترد على واحدة منها..

فأجابها هنري مذهولا..

-صدقيني يا حبيبتي لم تصلني رسالة واحدة.. لا يوجد شخص أغلي في حياتي منكِ.. روحي فداء لكِ.. عامة كل هذا سيتغير.. أنتِ الآن معي.. يمكننا الآن صنع مستقبلنا سويا..

فقالت ساخرة والدموع تبلل وجنتيها..

-هاهاهاها.. لا.. هذا مستحيل..

فأجابها مستغربا..

-لماذا؟!!!

فتبدلت ملامحها إلى ملامح مخيفة مقبضة وهي تقبض على معصمه.. حتى أقسم أن عينيها بدت ككرتين تسبحان في بحر من الدماء، وأن عظامها صارت ناتئة وشعرها تبعثر، وهي تصرخ كجرجونة متوحشة..

-لأنني ميتة ياهنري.. ميتة.. انتحرت بعدما سافرت بأسبوع.. هذا لأنك جبان ياهنري.. والآن آن الآوان لتدفع ثمن جُبنك..

ثم دفعته من على الحافة.. ليهوي في قاع النيل.

(١٥)

شهق هنري عندما ألقي على جسده دورق مياه بارد مرتعدًا كطائر مبلل.. بينما جلجلت أمامه ضحكات اللورد بايرون.. الذي ظهر مرتديًا بزة سوداء ورابطة عنق حمراء.. رجل وقور ذو شارب غليظ، وشعر أشيب وسالفين طويلين.. نموذج مثالي للأرستقراطيين الذين نقرأ عنهم في كتب التاريخ..

اتسع ثغر اللورد بايرون بابتسامة عريضة متأملاً هنري الذاهل ببلاهة وهو يستفيق..

-أين أنا؟!!! كيف جت إلى هنا؟!!

لكن اللورد بايرون استمر في الضحك بلا اكتراث.. ثم أردف بنغمة متهكمة..

-ألن تتوقف ياهنري؟!!!

هذه ثالث مرة تحدث لك فيها هذه النوبة.. ثالث مرة تغيب عن الوعي وتستيقظ مهلوسًا هكذا.. أعلم أن مقتل زميليك سبب لك أزمة نفسية شديدة.. لوثة عقلية ربما.. لكن يابني الحياة تمضي، والمهم أنك نجوت ونجحت.. أووووووه.. مسكين.. أنت تبدو رثا للغاية.. كأنك ضفدعة خارجة توًّا من حمام طيني..

أحاطت الهالات السوداء بعين هنري كدوامات.. لحية طويلة.. شعر أشعث.. أكثر وصف محترم له أنه يبدو كمتشرد.. لكنه لم يرد.. كان في عالم آخر.. مصدوما كأن قاطرة ضخمة ضربته.. يردد ذات السؤال..

-كيف وصلت إلى هنا؟!!! لقد كنت في المركب..

لكن اللورد بايرون باستهتار سحب مقعده وجلس أمامه..

-صدقني أنا متعاطف معك للغاية.. ليس من الطبيعي أن يحتفظ المرء بعقله بعد مذبحة مثل هذه..

لكن هنري اقترب منه وهو يخبره بصوت خافت وعيناه زائغتان..

-مستر بايرون.. صحيح أنني لا أعرف كيف جئت إلى هنا.. لكن حمدا لله لأنني وجدتك كي أخبرك بشيء هام..

ثم التفت يمينا ويسارا كالمجنون كأنه يتأكد أنه لا يوجد أحد سواهما في الغرفة وهمس في أذنه..

- لقد عثرنا على مومياء ملعونة.. هذه المومياء هي سبب كل كارثة حاقت بنا.. تخلص منها بأي طريقة..

لوهلة ران الصمت حتى بدت أن الأرض توقفت والزمن تجمد عند هذه اللحظة.. وكأن بايرون وهنري استحالا إلى تماثلين متقابلين.. لوحة فنية اسمها الوجوم..

فانفجر بايرون في الضحك مجددا..

-هاهاهاها.. هل تصدق في هذه الخرافات؟!! يبدو أن مخالطتك للمصريين أثرت على دماغك.. عموما يابني العزيز.. أنت بحاجة إلى راحة.. عطلة طويلة للاسترخاء حتى تستعيد فيها قواك وتنفصل عن هذا العالم وتجدد عزيمتك من جديد.. المهم أن تعدني ألا تستسلم لهذه الترهات أبدًا..

ثم أخرج مظروفًا أصفر كبيرًا ودسه في يده..

-وهذه هي مكافأتك حتى تشفى بأسرع ما يمكن.. هنري.. حبيبي.. ينبغي أن تكون فخورا بنفسك.. انظر ماذا فعلت.. لقد دخلت التاريخ من أوسع أبوابه يابني.. اصمد.. غدا تتحدث عنك الأجيال لعقود.. لقد اكتشفت أجمل تابوت في التاريخ يامغفل.. هاهاهاها..

لكن هنري نهض كإنسان آليّ مطوحًا بالمظروف، وخرج مترنحًا كالمجذوب..

ثم صفق الباب بقوة..

(١٦)

حمل الخدم تابوت المومياء إلى داخل غرفة واسعة مظلمة ككهف.. كانوا أربعة نوبيون مصريون أوجههم كالحة تنطق بشقائهم.. بينما اللورد بايرون يرمقهم من بعيد بعيون شرهة يلعق لسانه بين الفينة والأخرى كمن يتجهز لالتهام وليمة.. حتي وضعوا التابوت على الأرض.. ثم أخرجوا المومياء منه وقاموا بتسجيتها على منضدة مكونة من ألواح خشبية متجاورة لينفجر فيهم غاضبًا..

-بهدوء أيها الأغبياء.. بهدووووووووء..

بعدها مضي نحوها وهو يعرج متوكئًا على عصاه العاجية التي تتخذ هيئة أفعى منتصبة.. ثم مرر أصابعه النحيلة الطويلة على التابوت وهو يتنهد بشوق..

-أخيرا ياحبيبتي أصبحتِ ملكي.. ملكي وحدي.. يااااااه.. لقد انتظرتك منذ وقت طويل حتى يئستَ.. ظننت أنني سأرحل قبل ان أحوزك.. لكن القدر كان رحيمًا ببايرون في النهاية.. كنت محظوظا فعلا هذه المرة..

ثم أمر الخدم بالانصراف.. قائلاً لمساعده ريتشارد بلهجة حازمة..

-من فضلك ياريتشارد.. أغلق الباب جيدًا.. لا أريد أن يزعجني أحد بالمرة..

حتي إذا خرجوا جميعهم.. أغلق الباب بالمزلاج وعلى وجهه ترتسم ابتسامة ذئب وهو يطقطق أصابعه..

-لا تخافي ياعزيزتي.. الآن نحن بمفردنا.. أنتِ ملكي الآن.. للأبد.

*****

الشموع في كل مكان كأنه مذبح.. الدخان ينساب من بخور العود في الهواء كأفعى تتراقص على أنغام مزمار.. أما المومياء فمسجاة على منضدة خشبية

يحيط بها جيش آخر من الشموع من كل جانب.. بينما أسفل المنضدة تتجلى دائرة داخلها نجمة خماسية باللون الأسود..

اقترب بايرون من المومياء عاريا تمامًا كما ولدته أمه.. ثم قال بلهجة مخيفة وعيون شيطانية متقدة..

-يااااااه.. لقد انتظرت هذه اللحظة منذ أمد بعيد.. صدقيني سأكون أرحم بك من أم بجنينها.. من عاشق بمعشوقته.. لقد انتهي عصر الألم.. لن تتألمي بعد الآن..

ثم بدأ ينزع الضمادات الكتانية عنها على مهل.. لكنها كانت ملتصقة وقوية.. فبدأ يمزقها بعنف كحيوان همجي وهو يعتليها..

من ينظر إليه من بعيد يظن أنه مريض بالنيكروفيليا ويعاشرها.. حتي تمتم بغل..

-تبا.. لقد حنطوكِ يا سافلة بعناية.. لكن بايرون عشيقك لا ييأس..

رسم لهب الشموع على وجهه ظلالاً مخيفة كشيطان برز له قرنان.. يلهث كأنه يخوض «ماراثون» حتى نجح في فك الضمادات بالكامل.. ليطلق زفرة هائلة منتشيًا..

-واااااااو.. كم أنت جميلة أيتها الأميرة الفاتنة!!! هاهاهاها.. ربما لو عاد بي الزمن ثلاثة آلاف عام لتزوجتك.. صحيح أريد أن أخبرك سرًّا صغيرًا.. سرًّا وقحًا بصراحة..

ثم مال نحوها كأنه يهمس في أذنها..

- هل تظنين يا حلوتي فعلاً أنني مولع بالآثار؟!!! في الواقع أنا لم أكن في حياتي مهتمًّا قط بهذه العظام والحجارة.. لكن مع تقدمي في السن وتمكن الشيخوخة مني جزعت.. لا.. لن يمكن أن يموت بايرون العظيم بهذه السهولة.. اسوددت الدنيا في عيني حتى أخبرني أحدهم بسرك الأسطوري.. بصراحة.. كل ما في الامر أنني أريد الخلود مثلكم..

ثم تقهقهر للوراء بغتة والتقط سكينا طويلاً يلمع نصله وأولجه في عنقها.. أولجه بوحشية.. ليمرر يده بالداخل تعبث كأفعي شرسة حتى ارتطمت بشيء صلب.. فأخرجها منها ليجد في حوزته أنبوبة زجاجية صغيرة.. قنينة داكنة مرسوم عليها مفتاح الحياة..

وقتها هتف بصوت عميق كأسد يزأر..

- يورييييييييكا.. يورييييييييييييييييكا.. لقد وجدته.. لقد وجدته.. الأسطورة حقيقية.. الأسطورة حقيقية.. لقد وجدت كنز الكنوز.. أسطورة الأساطير.. سر الحياة.. وجدت الزئبق الأحمر*[1].. وجدت الزئبق الأحمر.. هاهاهاهاهاهاهااي.. هاهاهاهاهاهاهاهاهاااااااي.. هاهاهاهاهاه اهاهاهاهاهاااااااااااااااااااي

تدفقت جالونات من الأدرينالين والدوبامين في دم بايرون.. الذي أخذ يرقص رقصة النصر.. عاريًا كضبع متوحش.. ثم رفع القنينة لأعلى بينما على الجدار استطالت ظلالٌ آخرى.. ظِّلالٌ مُخيفة كأنها أمواجٌ من المَرَدَة والجانّ تتصارع عليها، تمد أياديها نحوه وهي تزوم وتزمجر.. حتى جأر بايرون بصوت مخيف وهو يمد عنقه..

(١) *كان الزئبق الأحمر من أشهر المواد السحرية التي نُسج عنه عشرات الأساطير، يقول البعض إنه سر من أسرار الحضارة المصرية.. وإن الكهنة استخدموه في تحنيط الملوك والأمراء الفراعنة بإيعاز من الجان حتى يضمنوا الخلود.. وإن من يمتلكه يستطيع تسخير الجان وتحضيره باستخدام التنزيل ليستخدمه كيفما شاء.. أما آخرون فيقولون إنه إكسير الحياة.. من يحتسيه يضمن الخلود، يقال أيضا إن الروس استخدموه في تصنيع الأسلحة النووية.. القصة تحديدا بدأت منذ الأربعينات.. عندما تم اكتشاف قنينة في مقبرة القائد «آمون تف نخت» أحد كبار قادة الجيش المصري في الأسرة السابعة والعشرين بواسطة دكتورألفريد لوكاس في سقارة.. تدخل الباحثون الروس في الموضوع فعكفوا على دراسته حتى انتشرت الشائعات إلى أن أصدر الرئيس عبدالناصر أمرا بإنهاء الأمر نهائيًّا.. بعدها حُفظت هذه الزجاجة وعليها ختم الحكومة المصرية في متحف الأقصر..

-الآن فقط.. حانت اللحظة الموعودة.. لحظة الخلود.. فلتركع لي كل سادة الشياطين.. بعلزبول.. لوسيفر.. ليليث.. إيواس.. بنعال..

أنا الآن السيد الخالد..

ثم تجرعها مرة واحدة حتى سمع دويًّا كأنه زلزال، وهو يمد ذراعيه لأعلى كفهد منتصر.. يصيح ويُقهقه كالمجاذيب..

-أشعر بالنشوة تتخلل في جسدي.. نهر الخلود يسري في دمي الآن.. أشعر بأنني شاب.. خالدٌ للأبد.. طاقة هائلة تتفجر داخلي.. ياللعظمة.. أنا أقوى مخلوق على الأرض.. أقوى من النجوم والشمس والأسود والنمور والأفيال والحيتان.. أنا الآن إله.. هاهاهاها أنا الآن إله.. هاهاهاها.

ثم تقلص وجهه فجأة كحيوان مذعور.. جحظت عيناه كأنه يبصر شيئًا مهولاً غير مرئي.. ثم هوي على الأرض.

(١٨)

دلف ريتشارد الغرفة متجهم الملامح وهو يحمل في يده البرقية الملعونة.. لم يصدق أذنيه عندما وصله الخبر.. يبدو الأمر ككابوسٍ مخيف.. من قال إن المصائب لا تأتي فرادى.. يبدو أن المصائب عبارة عنً قطارٍ كلُّ عربة تجر أختها.. الجملة حقيقيةٌ لدرجة مخيفة..

لقد انهار كل شيء.. خرَّ البُنيان من قواعده في لحظة بدون سوابق أو مقدمات.. فقط بضربةٍ واحدة كأنما ضربه زلزالٌ مُدمر.. رأسه غائص بين كتفيه كحيوان الخلد.. وجهه مبلل بفعل المطر المنهمر في الخارج كأن السماء حزينة على سيده..

سحب ريتشارد المقعد الخشبي ليجلس بجوار رئيسه وهو يتأمله ويمصمص شفتيه.. عندما رآه لم يصدق.. لقد بدا سيده كمومياء.. تقدم به العمر عقودًا من الزمن كأن عمره مائتيْ عام..

لقد سمع عن الذين يشيبون من الهوْل في لحظات.. ولم يصدق حتى رأى بعينيه.. بدا اللورد بايرون نحيلاً كعود قصب.. بوجهٍ متهدلٍ أكلته التجاعيد.. جسده هيكل عظمي.. يده رقطاء يضمها على صدرهً كفرعون.. أنفاسه تدخل وتخرج بصعوبة.. بالضبط مثل حوتٍ ضخمٍ يحتضر..

لقد خدم اللورد بايرون أكثر من عشر سنوات.. سافر فيها معه معظم بلاد العالم..

كان فيها خادمًا مخلصًا له.. بل عبدًا تابعًا له.. أما سيده فكان مثالاً للرجل الناجح القوي.. صنفٌ من الرجال نادرٌ كالماس.. صحيح أنه كان جامد الإحساس بدون مشاعر لفترات كثيرة.. لكنه أحبه من أعماق قلبه.. كان يؤمن أنه لابد أن يظهر هكذا.. هذا هو سمت الأقوياء.. كان يستمتع بخدمته.. رغم أن الأمر قد ينطوي على نزعة مازوخية.. فصاح بصوتٍ متألم مفعم بحسرة

حقيقية..

- سيدي.. مستر بايرون.. مستر بايرون..

حتى حرك وجهه أخيرًا ببطءٍ بعينين شاحبتين يسكنهما الموت.. ثم استطرد وهو يستجمع شجاعته..

-أريد أن أبلغك بشيء هام.. أمر مؤسف الصراحة.. لم أتخيل في لحظة أن يأتي هذا اليوم.. لم أكن أجرؤ لأبلغك ما حدث.. لكن لابد أن نتخذ خطوة..

في هذه اللحظة تمنى أن يملك فصاحة لسان شكسبير أو ويليام بِليك حتى يجيد صياغة العبارات.. كان يعرف أن سيده يبادله الحب.. لابد أنه هو أيضا كان يشكر الإله في كل ليلة لأنه لديه خادمًا في مثل إخلاصه.. حتى ظن أنه لو مات قبله بالتأكيد سيوصي أن تكون أمواله من نصيبه.. لابد أنها مفاجأة أعدها له سيده.. لكن الآن ضاع كل شيء.. تبخرت كل أحلامه في الهواء..

فاستأنف الحديث بصوت خفيض..

-لقد أبلغنا المصرف أن شركاتك كلها أفلست.. والدائنون والبنك يطاردونا.. لا يوجد حل سوى أن نبيع كل شركاتك وعقاراتك..

لم ينبس بايرون ببنت شفة.. حملق في السقف كأنه يحدق في كيان غير منظور.. شفته متدلية وعينه اليسرى متسعة بسبب عطب العصب السابع المصاحبة للفالج..

يحزنه هذا الوصف.. لكنه أقربهم للحقيقة.. كان يشبه خرقة بالية..

-سيدي.. أحتاج إلى توقيعك.. سيدي هل تسمعني؟!!!

لم يصدق ريتشارد أن سيده يمكن أن يخسر.. لقد بدا كحصان رابح إلى ما لا نهاية.. بالنسبة له كان البشر نوعين.. عبيد مثله يخدمون سادتهم بكل حماس.. وسادة مثل اللورد بايرون خالدون للأبد.. وعندما يتقدمون في العمر

لا يموتون بالتأكيد.. بل يختبئون في جزيرة منعزلة.. أو يعودون للحياة في صورة أخرى..

أمسك ريتشارد يد بايرون الخشنة التي لاحظ أن ملمسها يشبه جلود العظايا ثم وقع بها على الأوراق.. لكن عندما أعادها إلى موضعها سقطت بدون مقاومة.. خالية من النبض.. حينها أيقن أن كل شيء قد انتهى..

لقد مات بايرون.

الفصل الثالث
العائلة

(١)

«سوف يفقدون وظائفهم على الأرض، ويُرمَوْن في البحر، ويُحرمون من الذرية، ولا تحفر لهم مقبرة أو تقدم لهم قرابين، وسوف تفنى أجسادهم»

من مقبرة «أمنحتب بن حابو»

*****

أمسك دوجلاس موراي في حديقته البديعة برشاش الماء ينثره يمينًا ويسارًا يسقي الزرع حتى ركضت نحوه طفلة بطريقة مضحكة كبطريق.. فانحنى ناحيتها وهو يفتح ذراعيه حتى عانقها ودار بها في الهواء.. لتقول له بصوت بريء وهي تحاول التملص منه بأدب..

-بابا.. بابا.. هل يمكن أن أساعدك وأسقي الزرع مثلك؟!!!!

فقرصها من وجنتها المكتنزة، ثم قبَّلها، وابتسامة تفترش وجهه حتى بدت نواجذه..

-بالطبع يا حبيبتي.. بالطبع..

جيني هي ابنة دوجلاس الوحيدة.. حملت به زوجته كاثرين بعد معاناة.. بعد أن أجهضت ثلاث مرات دون سبب معروف، حتى نجح طبيبٌ شهيرٌ في لندن في علاجها أخيرًا..

لم يصدق أذنيه حينما سمعت صوتها لأول مرة.. كان صوت بكائها هو أفضل صوت سمعه في حياته.. أفضل حتى من سيمفونيات بيتهوفن وفاجنر المفتون بها.. كان حينها أسعد إنسان في الكون.. في أعلي عليين.. على قمة جبل إفرست.. بل على القمر ذاته..

حينها رأى زوجته كاثرين تمضي نحوه.. مبهجة كعادتها كموشحة أندلسية.. بستان يمشي على قدمين.. صهباء كأقحوانة حمراء.. انتشر النمش على وجنتيها كبذور السمسم.. شعرها يتمايل وينساب مثل العشب الطويل..

فقالت وهي تبتسم حتى أشرقت الدنيا كلها في وجهه..

-الغداء جاهز ياسادة.. ألن تأتيا لتناوله قبل أن يبرد.. يكفيكما لهوٌ أيها الأشقياء..

-هاهاهاها.. حسنًا.. أمهلينا خمس دقائق..

الفتاة متحمسة للغاية..

فقالت وهي تشير بإصبعها في حزم.. بنبرة آمرة كمارشال عسكري..

-لا.. يمكنكما استكمال اللهو فيما بعد.. لكل شيء وقته.. أما الآن فقد حان وقت الطعام.. أنت هكذا يادوجلاس تنشئها على التمرد والسلوكيات الخاطئة.. هل هذا ما علمتك إياه ياجيني؟!!! ها.. ماذا يقول الكتاب المقدس؟!!!

فبدت على الطفلة علامات الاستهجان.. ثم أحنت رأسها في انكسار ونطقت بصوت مذعن آياتًا من الكتاب المقدس.. وبالتحديد من الإصحاح الثالث- سفر الجامعة..

- لكل شيء زمان.. ولكل أمر تحت السماوات وقت.. للولادة وقت وللموت وقت..

للغرس وقت، ولقلع المغروس وقت..

كانت كاثرين إنجليزية متدينة بشدة.. ترتاد الكنيسة أيام الآحاد وتحرص على الصيام.. ملاك حقيقي.. أما فهو فكان يشعر كأنه فقمة البحر بجوارها.. غير متدين على الإطلاق.. قبيح.. سكير.. بائس.. لقد جاءته في اللحظة المناسبة وانتشلته من الضياع.. كانت هي اللوح الذي أنقذه من الغرق.. أمسكت جيني بيد أمها التي سألت زوجها باستنكار..

-وأنت يادوجلاس.. ألن تأتي معنا؟!!

فابتسم دوجلاس قائلا بلهجة دبلوماسية..

-حاضر.. ولكن امنحيني يا حبيبتي دقيقة.. سأتفحص شيئًا في القبو ثم سألحق بكما..

فمضت السيدتان معًا.. وهو يراقبهما بعين مطمئنة مسرورة حتى انتشله من شروده صوت مواء.. مواء وحشي.. فالتفت للخلف ورآه..

كان هو كالعادة.. قط أسود.. متربع على أطرافه كنمر متحفز.. عيناه جمرتان

مشتعلتان ترمقانه بغِل.. منذ أسبوع وظهر هذا القط.. .قط متشرد آوى إلى منزلهم.. في البداية كَان يتشاءم منه.. أما مع مرور الوقت فاعتاده، وإن كان لا يزال يتوجس منه خيفة.. لم ينجح كليا في اجتثاث هذا الشعور المقبض داخله.. لكنه لم يُعره بالا واتجه نحو مكانه المفضل.. القبو.. وقد وجد نفسه يردد تلقائيًّا بقية آيات الإصحاح التي قالتها ابنته..

- للقتل وقت وللشفاء وقت.. للهدم وقت وللبناء وقـت.. للبكاء وقت وللضحك وقت.. للنوح وقت وللرقص وقت.. للكسب وقت وللخسارة وقت.. وللتمزيق وقت.

(٢)

في القبو اجتاحت دوجلاس نوبة سعال شديدة بسبب الغبار المتراكم.. فتوقف برهة حتى هدأت.. ثم فتح إحدى النوافذ التي تسلل منها شعاعًا من الضوء، سار في ضوءه الشحيح وهو يتأمل تحفه بإعجاب..

كان القبو يعج بالأنتيكات كأنه متحف مصغر.. يضم تحفًا من كل الحضارات تقريبًا.. أقنعة جنائزية لحضارة المايا.. مسلة جدارية فرعونية مصغرة.. تمثالاً حجريًّا ضخم على هيئة أسد مجنح برأس بشري آشوري.. تمثالاً لزيوس من العاج.. تماثيل لآمون من الجرانيت الأسود.. عملة ذهبية من العصر الأموي.. أخرى رومانية عليها صورة الكولسيوم.. إلخ... حتي أخيرًا وصل لكنزه الأثمن.. تحفته الأغلى.. التابوت..

انحني نحوه وهو يمرر يده عليه برفق، كأنها محبوبة يتلمس كل جزء في جسدها وهو يتنهد منتشيا، وفي ذهنه تدور أهم محادثة تمت في حياته..

-حسنا ماذا تريد في هذا التابوت؟!!!

-سبعين جنيه استرليني..

-فقط؟!!!

-نعم.. أنا لست ماديًّا جشعًا.. أنا لا أفهم في هذه الأشياء.. بالنسبة لي فهذا التابوت خرقة بالية منذ آلاف السنوات.. كما أن صاحبها مات على أي حال.. لن أستفيد سنتا منها.. .. سأبيعه بأي ثمن..

حينها كان بمواجهة ذلك الرجل القصير الذي يشبه حيوان الخلد.. لم يصدق دوجلاس نفسه عندما حاز التابوت، ونظر إليه للوهلة الأولى.. شعر بسهم كيوبيد داخله.. قلبه يثب ويرقص مثل نافورة فرساي..

تبًّا.. لقد أبرم صفقة حياته بالتأكيد.. يبدو أن هذا الشخص الوصي أحمق

سفيه.. حتى أن هيئته تشي بأنه متخلف عقليا على الأرجح.. لسوء الحظ أن هذه الأشياء تقع دائما في أيدي المعتوهين الذين لا يُقدرون قيمتها.. فالحسناء يتزوجها كهلٌ.. والثروة يرثها أبلهٌ.. إلخ... من تصاريف القدر العوجاء الغبية..

لكنه جاء في الوقت المناسب.. التابوت محظوظ.. لقد أنقذه.. وحفظ قطعة نادرة من التاريخ من أن يهدرها هذا المعتوه.. قرب دوجلاس أنفه من التابوت مثل كلب دوبرمان وهو يشم كل جزء فيه.. بدا أن الطلاء يحتفظ برائحته كأنه مطلي به للتو..

سُحقًا.. لقد وقع في غرام هذه الرفاة.. فهذه الفتاة لها وجه ساحر.. أجمل من موناليزا دافنشي ذاتها..

-دوجلاااااااس.. دوجلاااااااااااس.. الغداء برد يا حبيبي..

لكن للأسف اللحظات السعيدة لا تدوم.. نهض دوجلاس مُرغمًا وهو يعض شفته متحسرًا.. ثم لثم غطاء التابوت ومضى.

(٣)

كانت الساعة الثانية صباحًا عندما سمعت كاثرين صوت طرقٍ على الباب..

-دوجلاس.. دوجلاس.. هل أنت مستيقظ؟!!! هناك شخص ما يطرق على الباب..

لكن دوجلاس كان يغط في نوم عميق كحيوان الكوالا بعد أن التهم آلاف الأطنان من أوراق شجر الأيكاليبتوس.. فمه مفتوح كالأبله، وخط من اللعاب يخرج من شدقيه ويشخر كموتور معطوب..

بدت الطرقات تتصاعد كأن كتيبة جيش واقفة بالخارج.. صوت قوي كزئير الرعد.. حتى شعرت بأن الباب سينسحق تحت ضرباتهم.. فحاولت كاثرين إيقاظ زوجها مرة أخرى والرعب مستحوذ عليها..

-دوجلاس.. دوجلاااااااااس.. استيقظ.. دوجلاااااااس.. هناك لصوص بالخارج..

لكنه أبي أن يصحو كأنه تناول عشرات الأقراص من الزانكس..

فقط فتح عينيه بصعوبة وأغمضهما سريعا وغمغم ببعض الكلمات غير المفهومة..

-هممتماتلرلبلؤحخ..

كان يبدو أنه في عالم آخر.. مجرة أخرى.. فنهضت كاثرين من الفراش في النهاية.. ارتدت منامتها البيضاء المزركشة.. ثم هبطت بحذر على أطراف أصابعها ترتجف كورقة خريفية.. عقلها يصورها عشرات الميتات والاحتمالات المرعبة.. إن لم يكن شياطين.. فهم على الأرجح قبيلة من النمور أو قطاع طرق سيمزقونها وعائلتها تمزيقا.. كان لسانها ثقيلا يلهج بالصلوات..

- أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك.. ليأت ملكوتك.. لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض..

لكن عندما وصلت للباب توقفت الطرقات تمامًا.. اختفت كل الأصوات وتبقي الصمت.. فقط الصمت..

انتظرت كاثرين أكثر من خمس دقائق متخشبة.. لكن الطرق لم يتكرر مرة أخرى.. حتى شكت أنها توهمت هذا الصوت.. هلاوس سمعية ربما.. ففتحت الباب بحذر وهي تغمض عينيها حتى لا ترى الهول.. ثم..

لم يكن شيء.. لم يكن ثمة شيء بالفعل.. باستثناء الريح التي تعوي في الخارج كذئب متململ.. شعرت بالبرودة تنخر في جسدها.. كأنها ستقتلعها ذاتها وتلقي بها بعيدة كدمية.. فشدت منامتها حول جسدها وأسنانها تصطك.. كان الجو عاصفًا.. ظلام دامس.. يستحيل أن يخرج بشري في هذه الأجواء.. فأغلقت الباب غاضبة وهي تلعن هؤلاء الأزواج الذين ليس لهم وظيفة غير الأكل واللهو.. كائنات طفيلية شهوانية كما قالت جدتها.. فعادت أدراجها ممتعضة.. حتى لمحته.. لمحت بطرف عينيها شبح متسربل بالظلام يدلف إلى الحمام.. فاختلجت..

لوهلة تجمدت في مكانها كأنها أصيبت بالفالج.. شل الخوف تفكيرها.. حتى عاد عقلها للعمل مرة أخرى.. وتشجعت.. فمضت بتؤدة وهي تستند على الجدار.. الخوف يعبث في أحشائها.. براميل أدرينالين تنسكب في دمائها وتعتصر قلبها.. حتي دخلت الحمام ثم..

ثم لم يكن أحد.. لم يكن أحد سواها.. فابتلعت ريقها بصعوبة وعيناها تشكر القدير.. وهي تلعن الأرق الذي دمرأعصابها حتى صارت الهلاوس رفيقتها.. فأمسكت بشمعة على الحوض ووقفت أمام المرآة تعدل من هندامها..

فاتنة هي بالفعل.. مكانها الحقيقي في القصر الملكي وليس هنا.. بالتأكيد دوجلاس يصلي للإله سرًّا كل ليلة من ورائها يحمده عليها..

-آاااااااي..

صرخت كاثرين ألمًا.. هناك شيء ما لدغ قفاها.. يبدو كزنبور غرس إبرته في

لحمها.. فأدرات رأسها وهي تتحسس عنقها.. لكنها لم تجد شيئًا.. حتى إذا نظرت للمرآة مرة أخرى.. أطلقت صرخة مريعة حملت كل رعب الدنيا.

(٤)

انهمكت كاثرين في المطبخ في الطهي، ومع ذلك فكانت شاردة وهي تقلب الحساء.. تتذكر ما حدث في الأمس.. أحيانا يهيأ لها أنه أضغاث أحلام وأنه لم يحدث أصلاً.. لكنها تعرف أنها تخدع نفسها.. ولو كان حلمًا فقد بدا حقيقي جدًّا.. فالصورة التي رأتها في المرآة لا تفارق مخيلتها.. صورة مريعة لها والخنافس تحيط بوجهها ثم أكلته في نهم.. لا.. هناك أمر مريب.. حاستها السادسة متوهجة.. قرون استعشارها منتصبة.. شعور انقباض في صدرها يسطو عليها.. هناك أمر مريب في المنزل بالتأكيد..

هي ليست من النوع الذي يتسلى بحكايات الجدات العجائز.. أو الإناث الهيستريات التي تداهما الضلالات أو تخترعها حتى تلفت نظر زوجها.. كما أنها هناك شعور لا يبارحها بأن ثمة أحد طيلة الوقت معها.. وجود ميتافيزيقي جاثم على روحها.. شيء يراقبها من حيث لا تدري..

لاحظتت كاثرين وهي تقلب الحساء فقاعات تصدر بكثرة.. فقاعات غير طبيعية.. كأن هناك شيء حي يتحرك تحت الماء.. شيء يسبح.. فاستمرت في التقليب ببطء بيد مرتجفة.. حتي لمحت كلابتين صغيرتين..

فابتلعت ريقها بصعوبة.. ثم قلبت بالملعقة.. و..

استمرت الفقاعات في التصاعد.. كأنه بركان يغلي.. حتي ظهر عقرب.. عقرب كامل بذيله الأسود ومخلبه ورأسه الصغير يتحرك.. فتقهقرت كاثرين للخلف مذعورة.. حتى انزلقت وسقطت على الأرض.. ثم تراجعت للوراء مستندة على يديها، وهي ترى العقرب يخرج من الإناء ويتقدم نحوها.. لا.. لم يكن واحدا.. بل اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة.. جيش من العقارب يزحف نحوها..

استمرت في التراجع حتى التصقت بالحائط محاولة أن تصرخ لكنها لم تستطع.. كأن أحبالها الصوتية ذابت تمامًا.. فاكتفت بالارتجاف والبكاء..

بكاء صامت.. لكن بكاءها لم يمنع العقارب في التقدم تجاهها.. فأغمضت عينها وعضت على شفتها المرتعشة وهي تستعد للهجوم الكاسح.. صئْيهم المتصاعد ينفجر في رأسها.. ثم..

-مااااااااااااااما..

مااااااااااااااااااااما..

فتحت عينيها على وجه جيني المذعورة وهي تشد في ثوبها..

-ماما.. لماذ تفترشين الأرض هكذا؟!!!

فنظرت كاثرين حولها مندهشة.. جالت بنظرها في كل أرجاء الغرفة لكن تبًّا.. لم تجد شيئًا.. تلاشت العقارب تمامًا كأنها تبخرت في الهواء.. لا يوجد شيء إلا الحساء الذي يغلي.. فألقت برأسها تلقائيا في صدر جيني ابنتها ثم انفجرت في بكاء عنيف.. بكاء بصوت هذه المرة.

(٥)

-ثمة خطب بهذا المنزل.. هناك أمور غير طبيعية تحدث طيلة الوقت..

هكذا قالت كاثرين لدوجلاس ودموعها تروي وجنتيها.. لم تكن كاثرين من النوع الهيستيري بلا شك الذي يتسلى بالتبرم.. وكان القلق يطل من عينيها.. قلق حقيقي تفضحه كلماتها بصوتها المرتعش.. لكن دوجلاس لم يبال.. فقال بلهجة ساخرة..

-هاهاهاها.. ويا ترى ماذا حدث هذه المرة؟!!!

لكنها قالت بصوت مكسور ممتزج بدموعها..

-هناك أمر ما.. أنا أشعر به.. رؤى مخيفة تنتابني.. أشياء أراها ليس لها وجود.. وأشياء أخرى أضعها ولا أجدها في مكانها، ثم تظهر من جديد في مكان آخر.. الهلاوس تحاوطني كجيش من النمل حتى أوشكت على أكل رأسي..

فقال دوجلاس وهو يُربت على كتفها بنفس اللهجة المستهترة والابتسامة المستفزة تعلو مُحياه كأنه يتعمد أن يصيبها بجلطة..

-لا يوجد شيء مريب يا حبيبتي.. كل ما في الامر أن أعصابك مرهقة بسبب تربية جيني.. هذا أمر طبيعي.. أو ربما أصابك زهايمر مبكر.. لأنك بلغتِ الأربعين.. هاهاهاهاها..

فقلصت وجهها وتجعدت ملامها متحولة إلى قطة برية شرسة..

-أنا لا أمزح يا دوجلاس.. لا تنسى أن ذكراتي كالفيل.. أنا أتذكر أشياء منذ الثالثة في عمري..

-هاهاهاها.. صحيح لكن العقل مثل الآلة.. أحيانا يصيبه التعب والعطب.. كما قلت لك أنت مرهقة بسبب مجهودك.. ألا ترين الهالات السوداء التي تحيط عينيك..

ثم قرصها من وجهها، وهو يبتسم ثم أردف..

-صدقيني يا حبيبتي أنتِ تحتاجين إلى الاستجمام فقط..

لكنها دفعته بعيدًا ووجهها محتقن كبركان يغلي وهي توشك على الفتك به..

-أخبرتك مئة مرة أنني لست مجنونة.. هناك أشياء أراها بالفعل.. هذا البيت به شيء ما.. ولو لا تصدقني انظر إلى ما ترسمه ابنتك..

ثم أمسكت بمجموعة من الأوراق وهي تشير إليها..

-هيا متع نظرك.. انظر..

كانت الصور التي رسمتها جيني في منتهي البشاعة.. في الأولى تظهر جيني تقف على مقبرة تضم أبويها.. في الثانية تقف مع امرأة مخيفة بعد أن اقتلعتا أعضاءهما ووضعتهما على منضدة التحنيط.. أما الثالثة فيظهران وهما يحلقان على مركب شمس يمسكان برأسيهما.. ثم انفجرت كاثرين كقنبلة..

-ألا تلفت هذه الأشياء نظرك.. هل جنت ابنتك هي الأخرى؟!!!

لكنه لم يهتم.. فقال لها في برود..

-أرى أنك تضخمين الأمور يا حبيبتي.. كل شيء له تفسير.. جيني فتاة ذكية للغاية.. أذكى بمراحل من كل قريناتها.. مخيلتها واسعة.. ربما شطح خيالها بعض الشيء.. كما أن تدينك صبغك بالإيمان في خرافات وغيبيات غبية..

فوقفت كاثرين وهي تضع يديها على خصرها، وعيناها تقدحان شررًا وهي تجز أسنانها..

-سأكون صريحة معك يا دوجلاس.. أنا لم أعتقد أبدًا في الخرافات أبدًا كما تظن.. لكنك أنت السبب.. بسبب كل هذه الخردة التي تخزنها في القبو.. هل تعتقد أن هذه الأشياء ليست بها أرواحًا؟!! هل تضمن أنها ليست أرواحًا ناقمة؟!!! ويالله العظمة!.. فأنت تمد بيتنا بأرواح من كل الحضارات.. لذا فبكل صراحة.. أنا أعتقد أن هذا البيت مسكون..

فأطلق دوجلاس ضحكة عالية حتى ارتجّ من شدة الضحك..

-بواهاهاهاها.. لقد فقدت عقلك ياكاثي..

حسنا أنا الآن متعجل.. هناك موعد هام مع صديق.. عندما أعود يمكننا مناقشة هذه الأمور الهزلية لاحقًا..

لكنها ردت عليه في تحدٍّ..

-افعل كما تشاء.. لا يهمني تصدقني أم لا.. عامة عندما تعود لن تجدني أنا وابنتك في المنزل..

لكن دوجلاس لم يُبال بتهديدها.. فتركها ومضى وهو يسب في داخله نساء الأرض جميعًا.

(٦)

غلت دماء كاثرين كمرجل وهي تحزم حقائبها.. لا.. لن تبقى في هذا المنزل الملعون ولو دقيقة واحدة.. زوجها المتخلف لن يستفيق إلا على كارثة.. مثله مثل كل الرجال، مجموعة من الكائنات الخزعبلية فقيرة الخيال معدومي الإحساس..

تسللت إلى أنف كاثرين رائحة قوية زكمت أنفها.. رائحة شياط بالتحديد.. فمدت عنقها تشتم في الهواء ككلب متوجس.. اللعنة.. بالفعل هناك رائحة حريق.. حتى بدأت عيناها تحرقها من خيوط الدخان التي تصاعدت نحو الغرفة.. فهبطت على الدرج مرتعدةً كأرنب مذعور.. حتى وجدت أن الدخان يتصاعد بكثافة من الطابق الأسفل.. من القبو ذاته.

*****

كان دوجلاس يُصاحب صديقه الأمريكي آرثر في رحلة صيد في الغابة، يرتدي كلاهما بذلتي سافاري كالمستكشفين.. كان آرثر كث الشارب ذو سوالف طويلة.. يذكرك تمامًا بإنسان الغاب.. والذي لاحظ شرود دوجلاس فسأله في اهتمام..

-مابك يادوجلاس؟!!!

تبدو على غير عادتك.. ليس هذا دوجلاس المرح الذي أعرفه..

فأجابه والوجوم يكتسي ملامحه..

-لا عليك يا آرثر.. أنا على ما يُرام يا صديقي..

حمل الإثنان بندقيتيّ صيد وهما يتوغلان داخل غابة إيبيبنغ بأشجارها الباسقة وأعشابها الطويلة وأصوات الطيور والحيوانات المتفاوتة.. بين صياح ونقيق وزمجرة.. خلفية موسيقية بديعة جديرة بأحد أفلام ناشيونال جيوجرافيك.. لكن آرثر لم يقتنع برد صديقه فقال بصوته الهادئ المطمئن..

-هل تظنني ألا أعرفك يا صديقي؟!!! قل هذا الكلام لأحد غيري.. لقد دامت صداقتنا أكثر من عشرة سنوات رغم أننا من بلدين مختلفين، ورغم أنني أمريكي وأنت وغد إنجليزي.. هاهاهاها.. هيا لا تكن سخيفًا يا صاح.. أفصِحْ عن مكنونك..

فرد دوجلاس ورأسه مطرقة لأسفل بصوت ثقيل مهموم..

-لا يوجد شيء صدقني.. زوجتي فقط ليست على ما يرام..

فأطلق آرثر ضحكة مدوية مثل بالون هيليوم انفجر..

-هاهاهاهاهاااااااا.. زوجتك ليست على ما يُرام.. هذا هو العادي ياسيدي.. النساء مثل القطط.. كائنات مزاجية يتبدلن من النقيض للنقيض في لحظة واحدة..

من السفح للقمة.. من ربيعي معتدل إلى شتاء قارس البرودة..

لكن دوجلاس لم يضحك.. فقال بصوت مكتئب..

-لا أدري.. لقد طرأت عليها تغييرات ملحوظة في الفترة الأخيرة.. صارت غريبة الأطوار للغاية.. تدعي أنها ترى أشياء غير موجودة.. تصرخ باستمرار.. تسيء معاملة ابنتنا الوحيدة.. حتى فكرت أن أستدعي لها طبيبًا.. لكن الذي يغظيني أكثر أنها تتهمني أنني السبب..

-هاهاهاها.. كلهن كذلك.. لن تصدقني لو أخبرتك أن زوجتي أحيانًا تعتقد أنني السبب في كل مصيبة تحدث على وجه الأرض.. بداية بانقراض الديناصورات وتدمير قرية بومبي انتهاءً بالحرب الأهلية الأمريكية..

-لا.. الأمر ليس على هذا النحو.. كاثرين تتهمني بصراحة بسبب ولعي بالأنتيكات والآثار أنني جلبت لعنة إلى المنزل بطريقة ما..

-هاهاهاها.. ربما تكون محقة..

ثم ربَّت آرثر مرة أخرى على كتف دوجلاس قائلاً بلهجة أبوية حنونة..

-لا تبتئس يا صديقي.. زوجتك ليست الوحيدة.. كما أخبرتك.. النساء كالبراكين.. يمكنهن أن يثورن لأقلٍ الأسباب، وبدون مقدمات كما أنهن يغارن من أشياء غريبة.. تخيل مثلاً.. زوجتي كانت تغار عليّ من كلبي.. هاهاهاهاها..

ثم انفجر الإثنان في نوبة من الضحك المدوي.. حتى صعدا تلة مرتفعة.. فسأله آرثر وهو يتلفت حوله..

-أليست هذه هي «تلة الجلاد» التي نقف عليها الآن؟!!!

فالتفت دوجلاس نحوه متعجبًا..

-أها.. هي بالفعل.. هل سمعت عنها من قبل؟!!!

فاستطرد آرثر في حماسة..

-بالطبع.. من يزور لندن ولا يسمع عنها.. تلة الجلاد أو التلة المغناطيسية.. دائمًا كنت أرغب في زيارتها والوقوف عليها بسبب كمية الشائعات والأساطير التي نسجت حولها.. أعرف أن بعضهم قال إنها تنعدم حولها الجاذبية، وأن من يقف فوقها قد ينسحب لأعلى حتى قال أحدهم لا تترك حصانك عندها أبًدا حتى لا تفقده للأبد وتجده يتبرز فوقك.. هاهاهاها.. أعتقد أن نيوتن أو كوبرنيكوس لو جاؤوا إلى هنا لماتوا من الضحك على هذه التفاهات..

فابتسم دوجلاس من صديقه..

-هاهاها.. دائمًا قادر على أن تخرجني من كآبتي بدعابتك وذكائك المعهود ياآرثر.. بالفعل هذه الغابة يُشاع عنها أنها مسكونة حتى أن الكثير من زوارها يروون وجود أشباح هنا.. لدرجة أن بعضهم قال إنك لو ارتفعت فوقها سترى شجرة باسقة عليها جسد رجل مشنوق.. ربما مصدر هذه الشائعات أن قاطع الطريق الشهير ديك توريين كان يُقيم هنا ويسرق ويقتل المارة و..

-شششششششش.. اصمت..

حينها قرص آرثر دوجلاس من كتفه وهو يلوح له بسبابته للسكوت حينما رآوا شبحًا يتحرك بين الأشجار..

*****

ركضت كاثرين على ملء وجهها.. مندفعة كرصاصة.. قلبها يخفق كطبول إفريقية.. حرقان في عينها.. سعال متواصل.. توشك أن تختنق.. بالفعل كان الدخان يتصاعد بكثافة من القبو حتى شكل سحبًا هائلة من الضباب.. بينما صوت ابنتها جيني يستنجد بها من الداخل حتى أصابها بالجنون..

-ماماااااا.. ماماااااا.. أغيثيييييييني..

فصرخت كاثرين كالمجنونة تحاول طمأنتها..

-جيني.. تماسكي يا حبيبتي.. أنا قادمة إليكِ..

مرت كاثرين عبر الدخان، وهي تمشي مثل المكفوفين.. يداها مبسوطتان للأمام تترنح في الدخان كالسكاري.. الرؤية معدومة تمامًا.. قرقعة النيران الوحشية تصم الآذان.. الألواح الخشبية تتساقط أمامها.. وهي تحاول تفاديها بصعوبة كلاعبة سيرك.. حتى نجحت في اختراق الضباب أخيرًا ورأت ابنتها.. هناك.. بجوار التابوت.. لكنها لم تكن بمفردها.

*****

قَرَصَ آرثر دوجلاس من كتفه، وهو يُلوح له بسبابته للسكوت حينما رأوا شبحًا يتحرك بين الأشجار.. فقبضا على سلاحيهما بعصبية وكلاهما وضعا أصابعهما على الزناد في تحفز.. حتي خرج الشبح من بين الأشجار ببطء واتضحت معالمه و..

-سحقا.. أففففف.. الملعونة كادت تميتني بسكتة قلبية..

هكذا قال آرثر وهو يُحدق في غزالة ممشوقة تتبختر كأنها دوق يتجول في إقطاعيته الخاصة.. حتى إذا ما ذهب روعه همس لصديقه في نبرة تحدٍّ..

-عامة.. هذه فرصة جيدة لاختبار مهارتك يا صديقي.. أتحداك يا دوجلاس لو استطعت ان تصيد هذه الغزالة من الطلقة الأولي.. هاهاهاها..

فغمز له دوجلاس علامة قبول التحدي.. فهو المحترف في الصيد والذي لم تخطئ بندقيته الهدف في أي مرة.. ثم أشهر بندقيته ووجهها نحو الغزالة ينتظر اللحظة المناسبة و.. لا يعرف هل هذا حقيقي أم لا.. لكنه شعر أنه ليس على ما يرام.. بالفعل.. شعر أنه يرتفع.. كأنه بالون يطفو في الهواء.. حتى أنه رأى زميله آرثر بالأسفل.. ففرك عينيه بقوة.. مرة.. واثنان.. وثلاثة.. مستحيل.. الصورة لم تتغير..

يبدو أن ضلالات كاثرين وحكايات آرثر أثرت على راسه، فأصبح يتوهم أشياء غير موجودة.. لكن فلتذهب الأوهام والأشباح إلى الجحيم.. كل هذا أوهام.. لا.. لن يسمح أن يهزمه آرثر.. سيصطاد الغزالة مهما كان الثمن..

فصوب البندقية ناحية الغزالة وهو يسيطر عليها بصعوبة كأنها دبت فيها الحياة تحاول أن تفلت منه كجواد متمرد.. لكنه حسم قراره.. فأغمض عينه اليسرى وضيق من اليمنى.. ثم ضغط على الزناد.. و..

(طاااااااااااااخ..)

ثم تناثرت الدماء في كل مكان.

*****

كانت جيني مسجاة على الأرض.. لكنها لم تكن بمفردها.. كانت بجوارها مخلوقة.. أبشع مخلوقة رأتها في حياتها.. مخلوقة من قلب الجحيم.. لها رأس لبؤة وجسد أنثوي وترتدي زيًّا فرعونيًّا.. عين رع الباطشة.. التي ذبحت معظم أهل الأرض من قبل.. كما ذكر كتاب البقرة السماوية.. كانت هذه المخلوقة هي سخمت.. ذاتها..

لم تكن كاثرين سمعت عن هذه الإلهة الفرعونية الغاضبة من قبل.. لكن هناك خاطرًا أخبرها في ذهنها بأنها تقف في حضرة سخمت.. وأنها الآن

غاضبة.. بل في أوج غضبها..

زمجرت سخمت كاشفة عن أسنانها الفتاكة والدماء اللزجة تنزلق منها، ثم صاحت وهي تهز رأسها بطريقة متهمكة مقلدة صوت جيني بالضبط..

- ماماااااااا.. ماماااااااا.. أغيثيييييييييني..

حينها هوى قلب كاثرين في إخمص قدميها لما رأت جثة ابنتها مضطرجة في دمائها تنتفض كشاة مذبوحة.. اسودَّت الدنيا في عينيها.. انهار عالمها في لحظات.. الآن فقط فقدت كل شيء.. الآن فقط انتهت قصتها.. فصرخت كاثرين كالممسوسة.. ثم افترشت الأرض وضمت جيني إلى صدرها وهي تبكي وتنتحب كالأطفال.. تبكي وتنتحب كما لم تبكِ من قبل.. حتى أنها لم تقاوم عندما لفحتها أنفاس سخمت الساخنة.. لم تقَاوم حينما أخذت تلعق عنقها بشراهة.. لم تقاوم عندما غرست أنيابها في شريانها السباتي.. لم تقاوم عندما تفجرت أنهار من الدماء من عنقها..

ثم كانت النهاية.

*****

عندما ضغط دوجلاس الزناد بالتأكيد.. كان يصوب بندقيته ناحية الغزالة.. لكن كثيرًا من الأمور التي نتهكم عليها باعتبارها غير معقولة تتضح أنها حقيقية في نهاية الأمر..

باختصار.. يبدو أن أسطورة التلة المغناطيسية كانت حقيقية بالفعل.. فبطريقة غير منطقية انطلقت الرصاصة مخالفة كل قوانين الفيزياء.. ثم انحرفت عن مسارها وارتدت للخلف.. لتستقر في ذراعه.. ومعها انفجرت نافورة من الدماء.. ثم هوى على الأرض.

(٧)

استقل دوجلاس عربته عائدًا.. ذراعه ملفوف بضمادات كثيفة ويئن من الألم.. خارجًا من مستشفى قريبة أسعفته واستخرجت فيها الرصاصة من ذراعه، لكنه رفض المبيت حتى لا تنشغل عليه زوجته.. قال له آرثر بنغمة أسى مفعمة بتأنيب ضمير..

-أنا متأسف ياصديقي.. الأمر كله خطئي.. أخطأت حين تحديتك وأيقظت المراهق داخلك..

فرد عليه دوجلاس بصوت منهك..

-لا تعتذر يا آرثر.. أنا من صوَّبت وليس أنت.. هذا جزاء عادل لي.. أستحق هذا المصير لأنني لم أصدق أسطورة التبة المغناطيسية.. هل تعرف ماهو أول شيء سأفعله عندما أعود للمنزل؟!!!

فنظر إليه آرثر في فضول..

-ماذا؟!!!

-سأعتذر لزوجتي.. سأعتذر لها حتى ترضى عني.. الآن أنا مقتنع أن هناك لعنة ما أصابتنا.. المسكينة حذرتني لكني كعهدي كنت مغرورًا..

في هذه اللحظة توقفت العربة أمام البيت.. لكنه لم يكن كما تركه.. تحول المنزل إلى كتلة نارية.. كرة من الجحيم المُستعر.. وصلت ألسنة اللهب والدخان إلى عنان السماء.. بينما المزارعون والجيران يحاولون إطفاءها دون جدوى.. الهرج والمرج في كل مكان..

لم يشعر دوجلاس بنفسه.. انطلق كرصاصة.. يركض كالمجاذيب.. بينما آرثر يركض وراءه محاولاً الإمساك به.. فلما وصل إلى بيته المشتعل حاول أن يلقي بجسده في النار لولا أن الأهالي تدخلوا ومنعوه بمشقة حتى رأى بعضهم

يحملون ابنته وزوجته.. فتملص منهم يحدوه الأمل وهو يكلمهم باكيًا..

-أنا آسف يا كاثي.. آسف يا حبيبتي لأنني لم أصدقك.. أنا أيضًا تلقيت جزائي وذراعي أصيب.. صدقيني سأتبع كل كلمة تقولينها بعد الآن..

لكنهما كانتا جثتين متفحمتين خاليتين من الحياة.. فخر على ركبتيه صعقا كجبل تم دكه.. ثم ضمهما إليه يبكي ويولول بصوت متهدج يدمي القلوب..

-كاثششششششششششششششششششي.. جينيييييييي.. آاااااااااه.. لقد قتلتكما بغبائي.. قتلتكما بأنانيتي.. قتلتكما لأنني لم أصدقك.. مستحيل.. لاااااااا.. لن أراكما مجددا.. لن أراكما مجددا.. لن أعقد إبزيم حذائك مجددا يا جيني.. والزهور ستموت لأنك لن ترويها.. وأمك لن تعد لنا الفطور مرة ثانية.. ولن أرى ابتسامتها مرة أخرى.. لاااااااا.. لقد أصبحتما الآن جثتين.. بينما الجرذان والسناجب والديدان والأحصنة والكلاب ينعمون بالحياة.. متم ووغدٌ مثلي ينعم بالحياة..

تعال يا آرثر.. انظر ألستُ جديرٌ بالشفقة؟!! بالتأكيد ترثى لحالي.. صحيح.. لقد قتلتهما يا آرثر.. تعال واقتلني.. أرجوك ياآرثر ادفنني حيًّا.. ارمني بالرصاص.. اشنقني.. احرقني.. لا تتركني أعيش.. أنا لا شيء بدونهم.. لا شيء.. لا شيء.. لا شيء..

ثم أغشي عليه.

الفصل الرابع
المتحف

(١)

-أرجو أن تنال القهوة إعجابك..

أومأت مسز وادريك هانت برأسها وهي تبتسم ابتسامة لطيفة كشفت عن أسنان ناصعة البياض كالمرمر ثم قالت..

-مذاقها رائع فعلاً.. برازيلية؟!!

فأومأ إدوارد جون ثومبسون مدير المتحف البريطاني برأسه علامة النفي مبتسمًا..

-لا.. هذه قهوة عربية.. يمنية بالتحديد.. طعمها ساحر بالفعل.. معها أشعر كأني أسير فوق السحاب حرفيًّا.. أشعر أنه بوسعي أن أجالس زيوس في الأولميب شخصيًّا.. هل تعلمين أن أول من نقلها إليها كان شخصًا تركيًّا؟!!! اسمه باسكا روسي.. يقال إنه من افتتح أول مقهى في لندن بالتحديد في شارع لومبارد عام ١٦٥٠..

فابتسمت وادريك برفق وهي تضع القدح على المنضدة.. ثم باعدت خصلات شعرها الرمادية التي انسابت على عينها الزرقاء الساحرة..

-أها.. أنت شخص مثقف جدًّا يامستر إدوارد.. معك أشعر كأنني بصحبة الموسوعة البريطانية ذاتها.. عامة.. فلندخل في صلب الموضوع.. أظنك تعرف مستر آرثر ويلر..

فأومأ برأسه على الفور..

-أها.. أعرفه بالطبع.. أليس هو عمدة نور وولك الأمريكية المشتهرة بصناعة قبعات التنس..

-هاهاهاها.. بالفعل هو..

عامة هو صديق قديم.. في زيارة للندن شهر كامل.. تستطيع أن تقول نوع من الاسترخاء والابتعاد عن العمل المرهق.. المهم.. لقد وكلني بأن أهدي إلى متحفكم مجموعة من الآثار النادرة.. بصراحة هو ذاته وسيط.. اشتراها من صديق له.. باعها له بعد ان تعرض لحادث بشع..

فانفرج ثغره مبتسمًا..

-هذا كرم منه بالتأكيد.. أخبريه أن المتحف البريطاني والتاريخ الإنساني ممتنين له كل الامتنان.. لكن هل أستطيع أن أعرف ما طبيعتها؟!!!

-كنوز لايمكنك تخيلها.. مقتنيات من مختلف الحضارات.. آشورية.. فرعونية.. إغريقية وحتى إسلامية.. لكن من ضمنها تحفة فريدة ستصيبك بالجنون..

-آثرتِ انتباهي.. ما هذه التحفة؟!!!

فرشفت رشفة أخرى من القهوة ثم سكتت لبرهة.. بعدها مدت جذعه نحوه وعيناها الصغيرتين متلألأتين مثل قطة الريكس الألمانية ثم همست بحماسة..

-تابوت.. أجمل تابوت ستراه في حياتك.

(٢)

ثلاث ساعات.. ثلاث ساعات من الأشغال الشاقة.. ثلاث ساعات ولينون يقود فيها هذه الشاحنة البخارية اللعينة التي تتأرجح بصورة كوميديةٍ وأعمدة البخار تتصاعد منها بكثافة كغابة تحترق.. لم يكن المناخ أفضل حالاً.. السماء مكفهرة بالغيوم.. والأمطار تتساقط بغزارة كالحصي حتى صاح أحد العمال بصوت مرتفع عصبي..

-تبا.. هل اقتربنا؟!!!!

فأجاب لينون بصوت أجش وهو يرفع قنينة خمر يحتسيها..

-اخفض صوتك ياأحمق.. هل أخبرك أحدهم أنني أصم؟!!! نعم.. وصلنا.. هنااااك..

ثم أشار للأمام صوب المتحف البريطاني.. التحفة المعمارية العريقة التي بدت كماسة تسطع وسط الضباب..

كانت الشاحنة تتبع شركة لانشستر موتور.. من ضمن إصداراتها الأوائل في العربات البخارية.. لذا ورغم كل المعاناة فكان لينون يشعر داخله بالفخر وهو يقود هذه المركبة رغم هيئتها المضحكة كأنه قائد الحرس الملكي ذاته.. لكن لا بأس.. هو أفضل من غيره.. على الأقل له وظيفةً بأجر ثابت.. كما أنه طيلة الوقت يتنقل داخل لندن مجانًا.. لكن زوجته الملعونة باربرا غير مقتنعة بذلك، ولا تكف عن الصراخ.. تطالبه دائمًا بالبحث عن وظيفة أخرى.. بالتأكيد كان أكبر خطأ في حياته عندما ذهب للكنيسة وتزوج هذه الحيزبون.. جديًّا يفكر في أن يدهس الكاهن الملعون الذي صدق على هذه الزيجة بعد أن يسحقها بالطبع.. جالت كل هذه الأفكار في ذهن لينون عندما أوقف السيارة أمام المتحف التي اهتزت فجأة وأصدرت حشرجة كأنها ديناصور يتجشأ..

-هيا أيها الحمقي.. لقد وصلنا.. خلصوني من هذه الجثة الملعونة وأخواتها داخل حظيرة الآثار هذه..

الفترة الماضية عاش فيها لينون أسوأ أوقاته.. توغل الملل في حياته.. أكل الروتين حماسته.. حتى أصبح متأففا ساخطا طيلة الوقت.. منذ أكثر من خمس ساعات أخبره رئيسه مستر تريفور بأن هناك حمولة هامة سينقلها للمتحف من أحد المنازل..

امتعض في البداية.. لكن الاعتراض ترف غير مسموح لأمثاله.. عندما وصل منزل دوجلاس شعر بقشعريرة ضربت عموده الفقري.. رعشة كهربائية سرت في كل خلية في جسده.. كان المنزل متفحما بالكامل.. رائحة الموت والحريق متوغلة في كل مكان.. ترجل العمال وولجوا المنزل وهو يحاول أن يشيح نظره عنه.. لقد بدا البيت كائنًا حيًّا يضخ في جسده طاقة سلبية هائلة.. بدا كشيطان محترق..

بعدها عادوا محملين بالغنائم.. مجموعة متنوعة من الآثار منها تابوت فرعوني.. عندما وقع عليه بصره لأول مرة شعر بأصابع باردة تعتصر قلبه كبرتقالة.. سمع أصواتًا تنبعث من هذا النعش بلغة لم يسمعها من قبل.. أصواتًا تشبه الفحيح ممزوجة بصرخات خافتة.. توترت أعصابه فصاح فيهم مرتبكًا..

-ماهذا بحق السماء الذي أحضرتوه.. هل أخبركم أحد أنني حانوتي؟!!!

فلكزه أحدهم..

-نحن مثلك مأمورون.. هيا تحرك ولا تهدر الوقت.. السماء غاضبة وتوشك أن تمطر..

لكنه كتم شهقة عندما رأى التابوت عن قرب.. كانت الفتاة المرسومة على واجهته وديعة وفاتنة بالفعل.. بالتأكيد أجمل من باربرا.. لكنه شعر بشيء غير مريح فيها.. يبدو الأمر جنونيًّا أو أنه ثمل بسبب ما يشربه.. لكنه مستعد

أن يقسم أنه هذه الفتاة حية وأن عينيها تتبعه وتراقبه.. لكن العجيب ما حدث في الطريق.. لقد بدا الطريق أطول من اللازم.. كأنهم يسيرون في طريق ملتف بلا نهاية.. كقصر التيه الأسطوري نفسه.. الأرض التي يتوه فيها السالك ولا يعرف فيها طريقًا.. أكثر من ساعتين يقود ثم يجد أنه يدور حول نفسه ويعود لنفس البقعة.. منزل دوجلاس المحترق..

-ماذا بك يالينون.. هل لحس الخمر عقلك؟!!! هل تلتف حول نفسك؟!!!

هكذا صاح فيه أحدهم.. فرد عليه بصوت غاضب وهو يحتسي جرعة كبيرة من الخمر ويتجشأ بلا اكتراث أو ذوق كفرس نهر مطلقًا سبابة بذيئة..

- تعال يا كيس النفايات وقد مكاني.. قذر..

لكنه في نفسه كان يرتعد ويتمتم لنفسه..

-بحق الجحيم ماذا يحدث؟!!!

كان متأكدًا أنه يقود بطريقة صحيحة.. لكن هناك شيء غير طبيعي.. حتى بدا يتلو بصوت خافت بضع آيات يحفظها من الإنجيل.. إلي أن انكسرت اللعنة في النهاية وخرجوا من هذه المتاهة.. أخيرا وصلوا إلى المتحف.. المتحف البريطاني.. حينها تنفس الصعداء.. شعر بمثل شعور غريق حل عند شاطئ النجاة في النهاية.. فزعق فيهم بعصبية..

- هيا أيها الحمقى.. لقد وصلنا.. خلصوني من هذه الجثة الملعونة وأخواتها داخل حظيرة الآثار هذه..

فنزلوا وحملوه بينما علا صوت أحدهم لصاحبه متعجبا..

-لا أعلم.. لكن هذا التابوت بدا أثقل مما سبق.. كأن به جثة فيل وليست مومياء بشرية..

تابعهم لينون بعين متوجسة وهو يتجرع جرعة أخرى يشكر ربه أنه تخلص من هذه المصيبة.. حتي استله من تركيزه خوار في آخر الشارع.. فترجل من الشاحنة يبحث عن مصدره.. فوضع كفه فوق ناظريه وضيقهما لتتضح الرؤية

حتى رآه.. ثور داكن ضخم يعبر الشارع بدون اكتراث كأنه يسير في حظيرته الخاصة..

-اللعنة.. ماهذا؟!!!

هكذا تمتم لينون لنفسه..

-هل ثملت لهذه الدرجة؟!!!

ففرك عينه.. لكن بدون أي تغيير..

فاقترب أكثر وهو لا يصدق الضوء الساطع الذي يراه على جسد هذا الثور.. فتقدم للأمام.. تقدم بخطى حثيثة.. حتى بدأ يتبين معالمه تدريجيًّا.. كتابة ذهبية.. حروف هيروغليفية بالتحديد..

في هذه اللحظة انتبه لينون أنه لم يطفئ محرك الشاحنة.. لكنه كان قد ابتعد عنها بمسافة كبيرة.. وقبل أن يتحرك شبرًا واحدًا.. رآها تتراجع للخف وتهبط المنَزَلَ بسرعة رهيبة كصاروخ.. فألقى بالزجاجة وهو يركض في إثرها كالمجنون.. يعدو بأقصي سرعة.. حتى كاد قلبه أن يخرق صدره.. ثم اكتملت المصيبة عندما انشقت الأرض عن ترام مكتظ الشاحنة في اتجاهه بلا شك.. فأخذ يصيح بكل قوته وهو يلهث..

-توقققف.. توقققققققققققققققققققققققققققف..

لكن رغم ذلك لم يسمعه أحد.. خرج صوته مبحوحًا ضعيفًا كأن فمه محشور به خرقة قطنية.. فاقتربت المركبتين من بعضهما بصورة مخيفة.. حتي بدا التصادم حتميًّا.. حتى بدت الكارثة واقعة لا مناص.. ثم حدث ما يخشاه و..

كرااااااااااااااااااااش..

حدث التصادم المريع.. فانقلبت الشاحنة والترام.. وتكدست الأجساد.. واختلطت الدماء بمياه المطر حتى تشكلت بركًا من اللون الأحمر القاني.

(٣)

-بحقّ المسيح.. ما هذا الجمال؟!!!!

وقف بول أمام التابوت يتدلى شدقيه من الذهول.. لقد كلفه مستر إدوارد بأن يفحص المومياء ويجهزها للعرض للعامّة بسبب خبرته بالمصريات وإجادته التامة للهيروغليفية.. لكنه لم يتخيل للحظة أنه بهذه الروعة..

-أريدك يابول أن تفحص هذه المومياء الفرعونية، وتُعدها للعرض.. هذه هدية من آرثر ويلر العمدة الأمريكي..

-صانع القبعات؟!!!

-نعم هو عينه.. أنا أضع كل ثقتي فيك، وأظن أنني أضعها في محلها.. أنت مثل إبني.. دائمًا كنت أرى نفسي فيك.. في عينيك المتقدتين بالحماس وعزيمتك المشتعلة.. لذا لا تُهدر الوقت.. هيا ابدأ للعمل..

-حاضر سيدي..

كان بول مثالاً للوسامة والذكاء في آنٍ واحد.. عينان زرقاوتان كالبحر.. شعر ذهبي.. جسد قويّ.. مع براعة منقطعة النظير.. لدرجة أن إدوارد كان يطلق عليه أبوللو.. إله الموسيقى الإغريقي الوسيم الشهير..

خلع بول معطفه الصوفي.. وجثا على ركبتيه بالقرب من التابوت.. للحظة اعترته رجفة.. شعر ببرودة قارسة تسكن جسده كأنما آتية من القطب الشمالي نفسه.. لكن الفتاة المرسومة كانت فاتنة بالفعل.. وجهها مريح كمقام أندلسي.. عيناها حالمة كقصيدة شعر..

لكن هذا ليس وقت التأمل في فتاة ميتة.. وراءه عمل ينبغي أن يُنجزه.. فأخرج مازورة من جعبته، وبدأ يقيس ويسجل المقاسات في مذكرة صغيرة يحملها..

-الطول ١٦٢ سم.. العرض ٣٨ سم.. السمك ١٢ سم..

التابوت مصنوع من خشب مطليّ بالبوليستر.. مطبوع عليه صورة فتاة ذات يدين بارزتين مصنوعتين من الشمع.. وشعر أسود ناعم ينسدل على كتفيها.. بينما أوشحة من اللون الأحمر المذهب تغطي جيدها.. والتابوت كله مطعم بأشكال آلهة فرعونية وأزهار اللوتس وقرود البابون و..

-هل تريد مني أي شيء قبل أن أغادر؟!!!

هكذا عرض عليه المساعده صديقه أوليفر بأسلوب عزومة المراكبية.. أنا أعرض عليك المساعدة في إطار المجاملة لكن من فضلك لا تستغل طيبتي وتورطني في ساعات إضافية يا أحمق..

فغزت ابتسامة لطيفة وجه بول وهو يهز رأسه..

-أشكرك يا أوليفر.. على الأرجح سأبيت ليلتي هنا.. عليّ أن أنجز مهتي في أسرع وقت..

-حسنا.. كما تحب..

ثم انطلق وتركه وحيدًا..

سلط بول ضوء المصباح على التابوت، ثم اقترب أكثر حتى يستطيع قراءة الكلمات الهيروغليفية المنقوشة عليه، ثم بدأ يتلوها بصوت خفيض..

-أنا زهرة اللوتس النقية التي بزغت من إله الضوء.. حارسة أنفاس رع.. حارسة أنفاس حتحور.. إنني أتقدم وأسرع وراء حورس.. إنني الكائنة النقية التي أتت من الحقل السماوي..

بوووووووول..

اختلج جسد بول بغتة.. فالتفت للخلف لكنه لم ير شيئًا.. كان وحيدًا كجزيرة منعزلة.. لا يوجد أحد سواه.. فمد عنقه وهتف..

-هل أحد هنا؟!!! هاللللللو.. هل أحد هنا؟!!!

لكن لم يرد عليه أحد.. فتمتم لنفسه بضحكات مصطنعة حتى يشجع نفسه..

-اللعنة.. هاهاها.. هذه مشكلة ألا تنام جيدًا.. عقلك يصبح فريسة للهلاوس تفعل فيها كما تشاء..

ثم سلط الضوء مرة أخرى على التابوت وتابع القراءة..

-إن هؤلاء الذين يقطنون في إنو أحنوا رؤوسهم أمامي لأنني ثورهم.. إني أصير قوية مع اللحظات.. وتزداد قواي مع ملايين السنين.. إنني أكتسي برداء الإلهة وجنت.. وأنهض وأجلي نفسي حينما يشتهي قلبي.. إن رأسي مثل رأس رع.. وعندما ضُمت أعضائي صرت كما الإله أتوم.. أركان رع الأربعة هي حدود الأرض.. وأنا أحرك لساني مثل لسان بتاح.. حلقي مثل حلق حتحور.. أحرك بشفتي كلمات أبي الإله أتوم.. نحوي تنحني الجبال وتمتلئ القلوب خشية..

بوووووووووول..

تردد الصوت هذه المرة قويًّا.. كأنثى غاضبة تصرخ.. بل كيان شيطاني يزأر.. فنهض من مكانه متوجسًا حتى خرج إلى باب المتحف الرئيسي ليجد الحارس جون يغط في نوم عميق..

-هل ناديتني ياجون؟!!!!

فأفاق جون من نومه وهو يتكلم ببطء كزومبي وهو يمسح لعابه..

-من.. من.. أووووووه.. مستر بول.. آسف.. يبدو أنني رُحت في نوم عميق..

فكرر بول كلامه وهو يجز على أسنانه..

-لا يهم.. أجب على سؤالي.. هل ناديتني؟!!!

-لا.. بحق السماء أنا لم أتحرك من هنا.. هل حدث شيء؟!!!

-لا.. متأسف أنني أزعجتك..

تابع نو..

أقصد حراستك..

ثم تركه وهو يسب هذا الأبله في سره..

- مغفل..

عاد إلى الغرفة مرة أخرى متوجسًا.. الخوف يعيث في أرضه كما يشاء..

-لا.. لن أسمح بهذه الأفكار الهزلية أن تسيطر على رأسي.. كل هذه أوهام.. أوهـاااااااام.. هذه ليست المرة الأولى التي أعمل فيها على مومياء.. لن تهزميني يا ملعونة.. لن أستسلم لألاعيبك.. سأستكمل فحصك مهما كان الثمن..

ثم جثا على ركبتيه مرة أخرى واستكمل التلاوة حتى وصل لمقطع آخر قذف الرعب في قلبه..

-أنا الثعبان ستا المنتفخ بالسنين.. أنا الذي أموت وأحيا ثانيًا كل يوم.. أنا الثعبان ستا الذي يسكن أقصى حدود الأرض.. أنا أموت وأعود وأجدد نفسي وأستعيد شبابي كل يوم..

ومع آخر كلمة لفظها سمع صوت جعل جسده كله يتخشب..

فحيح..

فحيح كوبرا.

(٤)

-ماذا حدث ياجون؟!!!

هكذا سأل مستر إدوارد الحارس جون بصوت غاضب، الذي كان يرتجف كيربوع في القطب الجنوبي.. سيول العرق البارد تنضح على جسده من التوتر..

-لا.. لا أعلم ياسيدي.. كنت في مكاني في نوبة الحراسة كالعادة عندما سمعت صراخ د. بول..

لم يكن صراخًا عاديًّا.. كان صراخًا مدويًا كأنه آتٍ من قلب جهنم ذاتها.. فنهضت من موضعي متجهًا بأقصى سرعة نحو مصدر الصوت كالرمح.. لأجده ملقى على الأرض بجوار تابوت ثاويًا في بركة من الدماء كفريسة فتك بها أسد بريّ.. كنت مذعورا بشدة.. شُل عقلي من المفاجأة..

حاولت أن أسأله ماذا حدث لكن صوته خرج متحشرجًا يهذي ببضع كلمات.. فحملته على كتفي واستقليت إحدى العربات ونقلته إلى هنا.. مستشفى سان ماري..

وقف إدوارد يرمق السماء المدلهمة الكئيبة وسيول الأمطار التي تنهمر منها كالرصاص.. حتى أضاء وجهه سنا برق.. فزم شفتيه وقال..

-غريب.. هل بدا الأمر كحادث؟!!!

فنفي جون نفيًا قاطعًا وهو يهز رأسه..

-لا.. كان ينزف من كل مكان في جسده.. من عينه.. أنفه.. فمه.. حتى معذرة.. من الشرج أيضًا..

بدا كأن كل شراييه انفجرت في وقت واحد مكونة أنهارًا من الدماء.. فرفع إدوارد حاجبه الأيمن مندهشًا..

-عجيب.. أظن على حد علمي أنه لا يُعاني من أي أمراض.. حسنا أخبرتني أنه قال لك شيء ما.. ما هذا الذي هذي بشأنه؟!!!

فسكت جون لبرهة مطرقًا رأسه لأسفل..

بدا مترددًا وخائفًا في نفس الوقت.. حتى قال في النهاية بصوت مبحوح مرتجف وعيناه زائغتان..

-تحدث عن أشياء غريبة.. عن لدغة أفعى خرجت له من التابوت.. لكني فتشت كل ركن في الغرفة ولم أجد شيئًا..

فاتسعت عينا إدوارد من الذهول.. فشدَّ قامته وتقلصت تجاعيد وجهه كحيوان الليمور.. حتى همس لجون بلهجة متوعدة..

-حسنًا ياجون.. أريدك أن تعلم أن هذا الكلام بيني وبينك.. ولا أريد أن يصل أيا من هذا الهذيان لأي شخص في المتحف.. وإلا سترى وجها لن تحبه إطلاقًا..

بالتأكيد بول كان يعاني من مرض ما في الدم وأخفاه عنّا.. لا نريد أن نثير الذعر لأجل بضع ترهات وأوهـام.. في هذه اللحظة خرج الطبيب بوجه متجهم كاسف البال كأن الطير فوق رأسه.. حتى سأله إدوارد..

-دكتور.. دكتور.. ما أخبار د. بول.. هل هو بخير؟!!!

لكن الطبيب لم يجبه كأنه لم يسمعه.. فبادره بسؤال آخر..

-أنا الذي أريد أنا أسألك.. هل تعرض د. بول لأي لدغة من الأفاعي؟!!!

فازدرد إدوارد لعابه وقد باغته السؤال.. ثم أجاب مرتكبًا..

-لا.. لا بالطبع.. يستحيل.. لقد كان وقتها في المتحف وليس الأدغال..

فحك الطبيب رأسه متعجبًا..

-الأمر مثير للحيرة.. كل العلامات تشير إلى أن زميلكم لدغته أفعى.. النزيف

وشلل الجهاز العصبي كما أنه يوجد في عنقه ثقبين يشبهان موضع غرز الأنياب..

فرد عليه إدوارد مصطنعًا الذهول..

-يستحيل يا سيدي.. المتحف البريطاني أنظف مقر حكومي في لندن.. حتى من العث والحشرات.. لا يمكن أن نسمح بتسلل صرصار حتى..

بعدها سكتا للحظات قبل أن يعاوده إدوارد السؤال مجددًا..

-لكن أخبرني.. ما وضعه الصحي الآن؟!!!

فأحنى الطبيب رأسه ملتزمًا الصمت للحظة.. ثم قال بصوتٍ محبط..

- رغم أننا بذلنا ما بوسعنا.. كان الوضع في منتهى الصعوبة.. للأسف لم نستطع مساعدته.. أنا آسف..

لقد فقدنا د.بول.

(٥)

كان أسود أسبوع في حياته..

استقر جون على مقعده يحتسي الخمر بكميات هائلة ثم تجشأ كخرتيت.. تحول في أسبوع كامل إلى ما يشبه إنسان الغاب.. غزا الشعر كل بقعة في جسده.. شعر أشعث.. شارب كث.. لحية غير مهذبة.. مع قميص رث.. وهالات سوداء.. تقدم عن سنه عشرات السنوات في هذا الأسبوع.. لولا الفاقة.. لفر من أمد بعيد..

بدا واضحا أن جون يهرب من شيء ما.. بالتحديد.. الأصوات التي تنبعث من الداخل.. الأصوات التي تنبعث من غرفة المومياوات الملعونة.. لدرجة أنه أحيانًا يسمع دويّ اهتزازات وانفجارات عنيفة كأن ألواح الأرض تتحرك فوق بعضها.. وأوقات أخرى يشعر بأن حرب التسع سنوات بين إنجلترا وأسبانيا ذاتها مشتعلة بالداخل..

دانات المدافع.. سيول الرصاص.. دوي الانفجارات.. قرقعة النيران.. استغاثات.. صرخات هيستيرية.. سنابك وصهيل الخيول.. إلخ..

والغريب عندما يدلف إلى الداخل يجد الهدوء التام.. كأن شيئًا لم يكن.. فقط الصمت.. الصمت المريب.. فيلقي نظرة على التابوت الذي وجد جثة بول بجواره فيجده كما هو.. المومياء ترقد بسلام ولم تتحرك شبرًا واحدًا.. لكنه يعرف جيدا أنها السبب.. فيقترب منها وهو يحدثها كأنها شخص حي..

-تبا لكِ أيتها المومياء اللعينة.. أنا أعرف أنك من تفعلين هذا بي.. أدرك ألاعيبكَ جيدا.. لكن خمنِ.. هاهاهاهاهاااااااااااااي.. أنا لن أرضخ لكِ.. هل تعلمين لماذا؟!!!!لأنني جندي بريطاني عتيد خدمت في الجيش منَ قبل.. قلبي أغلظ من أحجار الجرانيت.. .هع.هع.. اذهبِي إلى شخص رقيع مثلك ومارسي عليه ألعابك أيتها العاهرة.. عاهرة.. عاهرَة.. هاهاهاهاهاااااي..

هاهاهاهاهاهاااااااي..

ثم يضحك كالمجاذيب.. كل ليلة تتكرر هذه المحادثة بحذافيرها.. كأنها حلقة زمنية متكررة.. لكن الأصوات لم تتوقف.. حتى داوم على وضع سدادت قطنية في أذنه.. تظاهر بأن كل شيء على ما يرام.. ومع ذلك استمرت الأصوات في مطاردته.. معقول. هل يمكن أن يكون كل هذا من اختلاقه وبوادر مرض؟!!! جدته كانت تعاني من هذه الأوهام.. حتى أنها لم تعد تستطع أن تدخل الكنيسة.. فكلما اقتربت منها تزيغ عيناها وتتشنج، فيسيل الزبد الأبيض على شدقيها وتهتف بأصوات لاتينية كأن الشيطان نفسه من يتكلم..

للأسف مساعدة القساوسة لم تجد معها نفعًا.. ماتت منتحرة في النهاية.. ألقت بنفسها في نهر التايمز.. اللعنة.. هل يتكرر ذات المصير معه؟!!! لا.. لكن يكون هذا مصيره.. سيقتل هذه الملعونة قبل أن..

هاهاها.. لكنها ميتة أصلا ياأحمق.. هكذا تحدث لنفسه.. قبل أن يصدع في رأسه صوت ثالثا يهتف باسمه.. صوت واضح جدا رغم أنه لا يزال يضع السدادات في أذنه..

-جووووووووون.. جووووووووووووووووووون..

فأجفل..

اعترته قشعريرة باردة.. باردة لدرجة أنه شعر كأن الماء يتسرب إليه ثم.. سحقًا.. كان الماء يتدفق بالفعل من غرفة التوابيت.. فنهض من مقعده واقترب من القاعة ونظر من خلال زجاج الباب ليبصر أغرب مشهد رآه في حياته.. التابوت المشئوم مفتوح والمياه تتفجر منه كمنبع نهر.. ثم انفجرت عين أخرى من الجدران.. ثم ثالثة.. فرابعة.. فخامسة.. فسادسة.. حتى في خلال لحظات امتلأت القاعة عن آخرها بالماء كأنها نهر.. فوضى عارمة.. والتوابيت والآثار غمر معظمها بالمياه حتى وجد في نهاية القاعة يدًا بشرية

تلوح له.. ووجهًا يعرفه جيدًا..

وجه جدته.

*****

-جووووووووووووون.. أغثنيييييييي..

لوهلة بدا مترددًا.. عقله مشلول عن التفكير كحاسوب معطل.. لا يعلم ماالخطوة التالية.. صراع نفسي هائل يجول بداخله..

-كم هو ولد عاق.. جدته الحبيبة تستغيث به وهو ساكن في مكانه يتركها تغرق مرة أخرى؟!!!!

-لا يامغفل.. هذه أوهام من الخمر.. المومياء اللعينة تمارس ألاعيبها عليك حتى تصيبك بالجنون..

-تبا لك.. أيها المتحذلق.. لا هذه هي جدتي بلحمها ودمها..

-يامغفل كل هذه ضلالات.. بذمتك كيف جاء الماء إلى هنا أصلا؟!!!

كاد عقله ينفجر من شدة الصراع.. كأنه تحول إلى ساحة الكولسيوم..

-جووووووووووووون.. أغثنيييييييي..

استمرت جدته في الصراخ وهي تصارع الغرق.. حتي استكانت مرة واحدة وصمتت.. وحلت مكانها فقاعات الماء..

هنالك شعر جون بتأنيب الضمير.. فخلع ملابسه ثم فتح الباب واقتحم الغرفة..

-لا.. لن أتركك ياجدتي تموتين مرة أخرى.. جون حفيدك سينقذك..

ثم..

سبلاااااااااااااش..

ألقى بجسده في النهر، وبدأ السباحة في مشهد من أعجب المشاهد.. شخص يسبح في إحدى قاعات المتحف.. التوابيت والتماثيل تحيطه من كل جانب.. المدهش أن المياه كانت عميقة.. لم يدرك أن القاعة بهذا العمق من قبل.. كان ذراع جدته يهبط ويصعد.. لا تزال تعاني.. لا تزال تقاوم.. فصرخ من أعماقه ثم انطلق نحوها كسمكة قرش لا يوقفه شيء..

كانت تبتعد عنه.. النهر يجرفها بقوة.. فزاد من سرعته حتى لاحظ فكين شرسين يتبعانه.. عينان مخيفتان تحدجانه.. اللعنة.. هذا ما كان ينقصه.. تمساح يشق الماء..

سيطر الرعب على كل حواسه.. لو نجح هذا التمساح في النيْل منهما سيتحولا إلى لحم مفروم في ثوان.. فكدَّ في السباحة حتى اقترب منها ثم مد يده نحوها و.. تلامست الأصابع.. ثم أخيرًا..

قبض عليها.. وأخذ يجذبها..

-أمسكت بك.. لاتخافي ياجدتي.. لقد أنقذتكِ.. جون حفيدك أنقذك..

انتشل جون جدته صاعدًا على إحدى الدولايب، وشرع يهز جسدها الشاحب بعنف حتى تستفيق..

-أفيقِي يا جدتي.. بحق السماء أفيقِي وإلا قتلتني أمي..

حتي في النهاية سعلت ماءً ثم فتحت عينيها ونظرت إليه وهي تبتسم.. لكنها لم تكن ابتسامة عادية.. كانت ألعن ابتسامة رآها في حياته.. كانت الرعب عينه.

(٥)

«أيها الأحياء أجمعين، الداخلون إلى هذا القبر، المعتدون على هذا القبر بتشويهه، التمساح عليكم في الماء، الثعابين عليكم في الأرض، وأفراس النهر عليكم في الماء، والعقارب عليكم في الأرض»

من مقبرة «نس سوكر»

*****

كان إدوارد ينفث غليونه كمدخنة قاطرة بخارية.. خيوط الدخان تتراقص حوله كأفاعي على أنغام مزمار هندي.. متجهم الملامح.. شارد في عوالم أخرى.. يجب أن يتخذ قرارًا حاسمًا.. هذه هي مهمة القائد.. هذا ما علمه أبوه الذي كان جنرالاً في الجيش.. قائدَ فيلق عسكري بالتحديد..

رجلٌ صارم مهيب.. شاربٌ إنجليزي مبرومٌ لأعلي.. عيناه كصقر جبلي.. صوت حازم غليظ يذيب من أمامه، لكنه رغم ذلك فصلابته كانت مجرد قشرة خارجية تخفي طيبته وحنانه.. كان ينظر دائما إليه ويُنشئه على أنه سيخلفه يومًا ما.. في كل مرة يتخذ قرارًا حاسمًا يقول له هذه الكلمة بصوته الأجش المُحبب وقامته المشدودة..

-هذا هو الفارق بين القائد والتابع..

صحيح أنه مات صغيرًا إلى حد ما في إحدى معارك حرب الأفيون.. أعدمه الصينيون على الخازوق.. موتة في منتهي البشاعة.. ورغم ذلك لم ينل التكريم المستحق.. كان من الذين يتظاهرون بالثبات رغم ما يضربهم من عواصف حتى لا يسقط ويضعف من يتكئون عليهم.. الضعف خطيئة كبرى عنده..

لكنه دائمًا في قرارة نفسه يشعر بأنه خذله بطريقة ما.. ربما لأنه كره الحرب والحياة العسكرية وهوى التاريخ فصار عالم آثار.. لكنه على الأقل ورث عنه الحزم.. لذا يجب ان يكون قائدًا ويتخذ قرارًا حاسمًا..

وربما ماعجل له ودفعه للشعور بالخطر هو ما حدث منذ شهر عندما عثروا على جثة جون الحارس داخل قاعة المومياء شاخص العينين عاري الجسد مبتلاً.. من يراه يظن أنه غرق في المحيط، ولم يمُت في قاعة مغلقة في المتحف..

منذ ذلك الحين والحراس يرتعدون من هذه القاعة.. يتهامسون فيما بينهم على وجود لعنة ما.. أحدهم يقول إن هناك سيدة تظهر له ترتدي زيًّا فرعونيًّا تناديه باستمرار..

الهول في صورة بشرية.. امرأة من نسل الشيطان ذاته.. آخر يُبالغ بأنها ليست سيدة عادية وأنها مثل الهيدرا؛ لها عدة رؤوس كالأفاعي وكلما قطع رأسًا لها نبتت أخرى بدلاً منها..

ثالث يقول إنه هناك أصواتًا تصيبه بالجنون.. صراخٌ.. عواءٌ.. ضحكات شيطانية كأن قبيلة شياطين تقيم داخل قاعة التوابيت..

رابع يقول إنه رأى شخصًا أسود مفتول العضلات كالثور له رأس ابن آوي يمسك بمنجل وعينين متقدتين كشعلتين يطارده دائمًا في أحلامه.. لكن الأمور لم تتوقف على مجرد حكايات فحسب.. بل امتدت وصار الموت يحصدهم بمنجل حارس تلو الآخر.. فهناك من مات بذبحة قلبية.. وآخر قتل زوجته وأولاده.. ثالث انتحر وشنق نفسه.. لهذا من الطبيعي أن يفر الكل من المتحف بسبب هذه القاعة اللعينة.. صحيح أنه لا يؤمن بالخرافات لكن الأمر تجاوز الحد وهو ذاته العلماني اللاديني بدأ يشعر بالريبة حقًّا..

لذا فقد اتخذ القرار..

بعدها بساعات كان إدوارد يُشرف بنفسه على العمال، وهم ينقلون التابوت إلى مخزن المتحف.. المثوى الذي قرر أن يحفظه فيه حتى يبت في أمره.. عيناه مسلطة على التابوت يتوقع حدوث كارثة في أي وقت.. كأن ينهار فوقهم سقف المتحف أو حتى يسقط نيزك ينسفهم نسفًا..

لكن لحسن الحظ مرت عملية النقل بسلام.. ومع ذلك فقد شعر للحظة أن صورة المرأة المرسومة على التابوت ليست هادئة كما تبدو.. شعر بأن عينيها تحملان الكثير من الشر.. تتبعانه كلما سار.. ربما حتى تخيل أنه يسمع أصواتًا مثل صليل أجراس.. لكنه أبعد وجهه الناحية الثانية وخرج من المخزن وقد اتخذ قرارًا جديدًا..

قرارًا سيقضي على هذه اللعنة..

نهائيًّا.

(٦)

داخل المخزن قبض الخوف على قلبه بمخلبين باردين.. أنفاسه تدخل وتخرج بصعوبة كأنما أحدٌ يعتصر رئتيه.. هو يعاني ال Nyctophobia.. فوبيا الأماكن المظلمة.. يخشى الظلام بشدة.. يتخيله ككائن خرافي يطبق على روحه.. في أي لحظة قد يخرج له عفريت أو شبح تطبق يده المروعة على عنقه ثم يقتله من الرعب..

للحظة شعر بالندم.. للحظة فكر في النكوص والهرب.. لكنه أغمض عينيه وهو يجز على أسنانه.. ثم التقط نفسًا عميقًا كرياضي بعد ماراثونٍ عنيفٍ وهو يحفز نفسه.. بعدها حسم أمره..

سيواصل للنهاية مهما كان الثمن..

اسمه بيرتردام.. صحفي شاب يعمل في جريدة الديلي إكسبريس.. نجح في التسلل إلى المتحف مع صديق له يعمل داخله.. الوغد أخذ منه أربعين جنيهًا استرلينيًّا كاملاً.. لكنه لم يعبأ بذلك..

صحيح أن المبلغ موجع.. لكنه منَّى نفسه بأن الأمر يستحق.. كان يمضي بتؤدة كحلزون مرتبك.. الظلال المنعكسة على الحائط تثير خياله ورعبه في نفس الوقت.. حتى..

طرااااااااخ..

-اللعنة..

أجفل بيرتردام وهو يلتقط بقايا آنية خزفية أثرية تهشمت على الأرض.. فنهره صديقه وهو يلكزه بقوة في ذراعه..

-حذارِ ياأحمق.. هذه تحفة تاريخية يبلغ عمرها أكثر من أربعمائة سنة..

-متأسف..

بعدها بخطوات قليلة أشار له صديقه نحو تابوت خشبي مزخرف عليه فاتنة ترقد في سلام.. ثم همس له..

-هاهو موضوعك..

كان هذا التحقيق لبرتردام بمثابة حلم.. حلم يعقد عليه آمال عظيمة في سبيل الشهرة.. تخيل إسمه ساطع بالفونت العريض في مقال يهزّ العالم في الصفحة الرئيسية لجريدته فابتسم.. لابد أن جريدته ستحقق مبيعات خرافية بسبب هذه الضربة الصحفية العبقرية.. بالتأكيد سينتشر هذا العدد في كل أرجاء أوروبا كالنار في الهشيم..

-يااااااااااه.. هذا هو المجد..

هكذا تمتم بيرتردام لنفسه منتشيًا..

بالفعل هذا هو المجد الذي لم يصل إليه حتى الآن.. رغم أن له محاولات سابقة.. أبرزها عندما اقتحم مجال الرواية والقصة القصيرة.. حتى أنه عكف على تأليف عدة قصص بوليسية بطلها محقق اسمه أودينجتون، لكنه لم ينجح بالقدر الكافي ولم ينل نفس شهرة شيرلوك هولمز لصديقه آرثر كونان دويل..

كانت البداية في مباراة رجبي خاضها الأسبوع الماضي.. حيث ضم فريقه عالم الآثار الشاب بيكر الذي أخبر بيرتردام وهو يلهث..

-لدي موضوع مثير لك.. لو كتبت تحقيق عنه سيبلغ صيتك الآفاق وستتجاوز شهرتك ملكة إنجلترا ذاتها..

فالتفت نحوه وهو يمسح قطرات العرق المنسدلة على وجهه وهو يلهث أيضًا..

-موضوع؟!!! ها.. أي موضوع؟!!!لست في حالة مزاجية تسمح لمزاحك يا

بيكر.. يكفيني ما بي..

-صدقني هذه المرة الموضوع جاد..

ثم اقترب منه وهو يقول بصوت خافت..

-هل سمعت عن المومياء الملعونة؟!!!!

في هذه اللحظة انتبهت كل حواس بيرتردام.. وأرهف السمع كقط..

-مومياء ملعونة.. ماذا تقصد يا بيكر؟!!!!

فضغط بيكر على ذراعه وهو يغمز له بعينه..

-بعد المباراة سأخبرك..

علي مقعدين متجاورين امام البار في حانة Jamica wine house جلس الرفيقان يحتسيان البيرة.. حتى فتح بيرتردام الحديث محاولاً استدراج صديقه..

-هيا.أخبرني يا بيكر.. ما قصة هذه المومياء التي أخبرتني عليها؟!!!

فمسح بيكر الرغاوي العالقة في شاربة ثم تجشأ بصوت مقزز ككلب البحر.. وقال بلسان ثقيل غير مبالٍ ورأسه تترنح..

-أريد أن أعود للمنزل..

فجذبه بيرتردام من قميصه وهو يهدده..

-لو خرجت من الحانة الآن أقسم لك سأجعل وجهك مثل فطر عيش الغراب.. لن تبرح هذا المكان قبل أن تخبرني بما في جعبتك..

فتجشأ بيكر مرة أخرى بلا اكتراث.. ثم قال وهو يحك رأسه..

-هاهاهاها.. أنت سهل استفزازك على فكرة.. كان الله في عون زوجتك المستقبلية..

عامة سأخبرك بكل شيء شريطة أن تعدني أن تجعلني بطلاً في روايتك الجديدة..

فقال بيرتردام وهو يجز على أسنانه من الغيظ..

-سأجعلك معاون أدينجتون وصديقه الصدوق..

-هاهاهاها.. لا.. أريده هو من يعاونني.. وأريدك أن تجعلني زير نساء.. أريدك أن تكتبني دون جوان.. كل أنثى تنظر في وجهي تقع في حبي على الفور..

- لك ماأردت.. هيا.. أخبرني.. لقد أوشك صبري على النفاذ..

فقهقه بيكر بصوت مدوٍّ..

-هاهاهاها.. كما أخبرتك.. أنت عصبي صعب المراس.. حسنا.. فلتناولني كأسًا آخر في صحة المومياء..

فأشار بيرتردام للنادل أن يصب لصديقه كأسًا آخر وهو ينفجر غيظا من ابتزازه الذي تجرعه دفعة واحدة كأن معدته ثقب أسود.. بعدها بدأ يحكي حكايته..

اقترب بيرتردام من التابوت، وعيناه تكاد تغادرمحجرها من فرط الانبهار.. أقسم في هذه اللحظة أنه اشتم رائحة المجد.. رائحة مدهشة مزيج من الزعفران والمسك..

فجثا على ركبيته، ثم أخذ يمرر يديه على التابوت وفكيه متدليان من الإعجاب..

بعدها نظر لصديقه بيكر وهو غير مصدق..

-هل هذه التحفة حقيقية؟!!!

فرد عليه بيكر في مزيج من التوتر والسخرية..

-حقيقية وملعونة في ذات الوقت يا مغفل.. الآن صدقتني.. هيا لنغادر قبل أن ينتبه أحد..

فأجابه بيرتردام في إصرار..

-لا.. سأصورها أولاً..

فرد عليه بيكر في عصبية..

-لا.. لم نتفق على هذا.. كان اتفاقنا أن تشاهدها ونمضي..

-هل انت مغفل.. هل تظنني أنني أعطيتك أربعين جنيه أسترليني من أجل زيارة في جنح الظلام؟!!!

لو كتبت موضوع عن هذا من سيصدقني.. لا.. الصورة ضرورة ملحة.. صدقني أنت تقدم خدمة جليلة للصحافة.. تحمي آخرين جاهلين من أن تصيبهم هذه المومياء بلعنتها.. لا تخشى شيئا.. لن ينالك أذى..

في النهاية رضخ بيكر أمام إلحاح بيتردام المتواصل، الذي أخرج من حقيبته الجلدية حاملاً بلاستيكيًّا قام بفرده من طيه.. ثم وضع فوقه كاميرا بدائية تنتمي لكوداك..

وفي خلال ثوان سطع الوميض.

(٧)

في اليوم التالي دخل إدوارد المخزن بصحبة هيلينا بلاتفسكي الوسيطة الروحية الشهيرة، ومؤسسة الديانة الثيوصوفية التي طالما أثارت حولها الجدل.. ورغم أنها كانت قصيرة القامة بدينة ترفل في بذلة سوداء وغطاء رأس أسود أيضًا تدلت منه خصلات شعرها الرمادية، لكن عيناها الخضراوتين كانتا ثاقبتين كاسحتين مثل الوشق الأيبيري..

عينان لم يكن بوسعه أن ينظر فيهما مباشرة.. كان يشعر نحوها برهبة شديدة.. بنظرة واحدة منها تستطيع أن تنومه مغناطيسيًّا وتجبره على أن يعترف بكل شيء في حياته.. كما أنها لم تكن أبدًا تبتسم.. لذا اعتراه شعورٌ بأنها تستطيع أن تنفذ إلى روحه ذاتها..

باختصار كانت الأنثى المكافئة لشخص راسبوتين.. لبؤة قوية يمكن أن تلتهمك في أي لحظة.. مضت هيلينا بتؤدة وهي تحدثه بإنجليزية ركيكة لأنها روسية الأصل.. ثم تشرد لوهلة كأنها تسافر إلى عوالم أخرى، وبعدها تعاود الحديث من جديد..

كانت تفكر في حتمية النجاح.. طيلة عمرها جريئة مقامرة.. مغامرة جديدة مثيرة لو نجحت فيها ستجني بعض الصيت، والذي سيدعمها في نشر دينها الجديد..

مستر إدوارد رجل محترم.. لكنه يهابها وهذا أمر جيد.. أن تزرع الخوف والمهابة من حولك خير أداة تساعدك في بث أفكارك حتى لو كانت عبارة عن بعض التفاهات.. وهذا ماتعلمته.. المهم أن تُجيد الكذب وتهيء المستمع لذلك.. هذه الخلطة لم تخيب معها أبدًا..

لقد تجاوز بها قطار العمر سريعًا.. هاهي تعدت الخامسة والخمسين وبالرغم من ذلك لا تزال تتذكر كل شيء.. كل شيء..

أووووووه ياهيلينا..

لا تزال تتذكر أمها الحبيبة.. كانت تشبهها بشدة.. نسخة بالكربون منها.. لكن جملة واحدة لا تستطيع أن تبْرح ذاكرتها.. جملة واحدة بثت في جسدها قشعريرة مريعة.. قالتها لها بصوتها المتحشرج وهي تحتضر بسبب الدرن، وتسعل دمًا..

«ربما يكون من الأفضل أن أموت.. علي الأقل سأضمن أنني لن أعاني من رؤية مصيرك المرير»

لم تكن تعلم وقتها هيلينا ما سبب هذيان أمها.. هل هي هلاوس الموت وسكراته.. أم أنها قد تكون نبوءة مخيفة؟!! لكن ما جعل هاجس النبوءة يستحوذ عليها أنها أمها كانت ذات موهبة روحية.. الاستبصار.. وربما هذا ماورثته منها.. وهذا ما يُخيفها دائمًا..

لكنها لم تكن المرة الأولى التي يتنبأ لها أحدهم.. منذ أكثر من أربعين عامًا في وقت المراهقة كان يلحّ عليها حلمٌ يتكرر باستمرار.. حلم يظهر فيه رجل ذو ملامح هندية واضحة يُخبرها بصوت جهوري أنها ستكون ذات شأن وسيذيع صيتها..

العجيب أنها في شبابها قابلت هذا الرجل في الحقيقة.. وقتها ارتعدت.. لم تكن تعرف هل فعلاً حلمت به، أم أنها آثار الديجافو.. لكنه فعلا هو.. بجسده النحيل وعينيه الذابلتين ووجهه الأسمر الكالح.. قابلته في هايد بارك في لندن.. ليقول لها بصوت هادئ عميق..

-عليكِ أن تذهبِي إلى التبت يا هلينا.. هناك قدرك..

وقد غيرت هذه الكلمات حياتها بالكامل..

بالفعل سافرت إلى التبت، حيث تلقت من الكهنة تعاليم كتاب Dyzan الأسطوري الذي يضم سر الخلق وأصول السحر.. فأتقنتها حتى أصبح الاستبصار وقراءة الأفكار والتخاطر نشاطًا روتينيًّا بالنسبة لها.. لهذا فلم يكن

من العجيب أنها تتجول الآن في ردهات عقل إدوارد وتُنصت إلى كل حرف يفكر فيه.. لهذا فهي تعرف جيدًا كم يهابها وفي نفس الوقت يحتقرها ويظن أنها نصابة..

مضى إدوارد معها بحذر، وهما يتجاوزان العديد من المعروضات حتى وصلا إلى تابوت خشبي ليشير إليه برهبة..

-هذا هو التابوت الذي حدثتك عنه يا سيدتي!!..

عندما وقعت عينا هيلينا على التابوت وقعت في حبه من اللحظة الأولى.. كان زاهيًا جدًّا.. تحفة فنية أصيلة لا تنتمي إلى عالم اليوم القبيح.. الفراعنة كانوا مبهرين بحق.. لهذا كانت طيلة حياتها مفتونة بهم.. لدرجة أنها خصصت فصلاً بالكامل للكتابة عنهم في كتابها الأول.. تحت عنوان «كشف النقاب عن إيزيس»..

رفع إدوارد رأسه مختلسًا النظر إلى ملامحها حتى يتابع انفعالاتها.. من حسن حظه أنها كانت في لندن.. لذا لم يتردد في أن يذهب إلى مقرها، ويستشيرها طالبًا منها المساعدة بعد أن تصاعدت الشائعات بخصوص الوفيات المتتابعة ووجود لعنة ما للمومياء.. كانت هي الشخصية المثالية.. فهذه المشعوذة الجاسوسة الروسية بدت أنها لا تقهر.. لا تموت.. مثل القطط كما يقولون.. بسبعة أرواح.. لقد هزمت الموت نفسه منذ أمد بعيد.. فقد خاضت الحرب مع الإيطاليين لتحريرهم من الحكم النمساوي ورغم الإصابات الخطيرة نجت.. حتي أنها تعرضت لغيبوبة وصلت إلى خمسة أيام مرتين لدرجة أنهم أعلنوا وفاتها في إحداها.. لكنها في كل مرة تستيقظ في النهاية كما أنها لو كانت في رحلة قصيرة أو غفوة..

حدَّقت هيلينا في التابوت بعينين واسعتين كجهاز أشعة سينية تمسحان كل جزء فيه.. فأحنت جسدها وهي تمرر يدها المتغضنة عليه كأن لها أعينًا.. وقالت بصوت عميق حاسم..

-حسنا.. فلنبدأ العمل..

ثم أخرجت طبشورة بيضاء من جعبتها، وطفقت ترسم على الأرض.. نجمة داود وبداخلها مفتاح الحياة الفرعوني غنخ.. يلتف حولها جسد ثعبان في صورة دائرة غير مكتملة، وفوقه صليب سافاستيكا المعقوف الذي صار فيما بعد يرمز للنازية..

ثم فتحت غطاء التابوت..

كانت المومياء ترقد في السلام وإن كانت الضمادات مهترئة حولها.. واضح جدًّا أن أحدهم حاول العبث بها من قبل وغطاها بصورة مهملة.. فقالت هيلين بصوت أجش..

-هيا يامستر إدوارد ساعدني..

فتجمد إدوارد في مكانه.. ثم سألها بصوت متلعثم..

-ك.. كيف أساعدك يا مسيز هيلينا؟!!!

فزفرت متأففة قائلة في نفاذ صبر..

-هيا.. فلنضع المومياء داخل هذه الدائرة..

-ح.. حسنا.. كما تشائين..

لم يكن إدوارد يملك رفاهية الاعتراض.. لم يستطع أن يخبرها أنه يعاني من آلام في غضاريف فقراته القطنية وأنه يحيط ظهره بمشد..

كانت نظراتها كاسحة.. فأذعن لها على الفور ككلب جريفون مطيع.. فحملها من رأسها وجذعها.. بينما هي أمسكت ساقيها وفي ظرف أقل من دقيقة تمكن العجوزان من وضع المومياء داخل الدائرة الشيطانيةً.. بعدها وقفت هيلينا أمام الدائرة وهي تمسك بمجلد قديم كقس يتلو الصلوات..

لكنها الآن لا تتلو صلوات الرب.. بل تتلو صلوات السحر الأسود.. صلوات الشياطين..

فأخذت تجأر بكلمات لاتينية بصوت عميق رنان أصابه بالرعب.. وبالرغم من أنه حضر من قبل إحدى جلسات تحضير الأرواح بطريقة السلال.. ومرة أخرى عن طريق لعبة الويجا.. لكن هذه التجربة بدت حقيقة.. حقيقية جدا..

تصاعد صوت هيلينا بالكلمات.. تصاعد كأنها مغنية أوبرا.. ومعها دوت موسيقى مُخيفة من العدم.. من اللامكان.. كأن أعوانها من الكائنات السفلية هم من يعزفونها..

Ibi non mori - di immortales adhuc vacat

Confinio nulla inter diem et noctem

كانت المعروضات تتساقط واحدة تلوالأخرى، الأرض ترتجف كأنها فوق بركان يغلي.. بينما جسد هلينيا يتشنج حرفيًّا.. عيناها تبدلت إلى البياض التام وتبعثر شعرها..

ثم ارتفعت في الهواء متحدية قوى الجاذبية.. وأخذت تلوح بيدها بقوة كأنها تحولت إلى ميدوسا ذاتها.. وهي تصيح بصوت غير آدمي/ وأوداجها نافرة

كالخراطيم..

Obscurum est et prius latebat

Et caliginis, altum videtur

Oceanum est lux absque

أقسم إدوارد فيما بعد أنه رأى الفصول الأربعة تتعاقب في دقيقة واحدة.. بينما الملعونة بدت كأن أحدًا لا يستطيع إيقافها وهي تزأر كإعصار..

Adhuc semen in folliculo iacebat

Eruperit unius naturae ab ardore

شعر كأنه في قلب جهنم ذاتها.. انفجارات في كل مكان.. شهبٌ وجمراتٌ تتساقط من حولهم كالمطر.. الأرض تتشقق من أسفلهم.. والأخاديد تتمدد وتحاصرهم.. بينما الشياطين تتلوى في النيران من حولهم حتى أصابه صراخها المريع بالصمم.. أما هيلينا فغير عابئة.. لا تزال طافية في الهواء تصرخ كشيطانة حقيقية..

nomine isis et ego disposui tibi

Surgere a morte

ثم أخذت تكررها مثل تسجيل معطوب بصوت مُدوٍّ كالرعد..

nomine isis et ego disposui tibi

Surgere a morte

تكررها وتكررها حتى بدأت المومياء ترتفع في الهواء .. تطفو هي الأخرى.. حتى أنه أوشك أن يتبول في سرواله من الخوف.. كان يرى الجحيم نفسه.. ثم في لحظة سطع ضوءٌ أبيضٌ هائلٌ مصاحبٌ بفرقعة مُخيفة كانفجار عنيف.. حينها فقدً الوعي.. وحينها رأت هيلينا كل شيء.

(٨)

كانت الغرفة معتمة بالكامل إلا من شعاع أحمر يشق الظلام كشهاب ثاقب.. بينما بيرتردام منهمكٌ في تحميض الأفلام يمسك الصور بفخر أم بجنينها.. لقد بات الآن على بعد خطوات من نشر التحقيق القنبلة.. بات على بعد خطوات فقط من تحقيق الحلم.. وبينما انهمك في تقليب الصورة يمينا ويسارا في محلول التظهير لاحظ ظهور طيف ضبابي يغشي التابوت بعث في جسده قشعريرة كالثلج..

-اللعنة على مواد التحميض المغشوشة.. لقد فسدت الصورة الأولى..

هكذا تمتم بيرتدام وهو يعضِ شفته محاولاً إقناع نفسه أن ما رآه مجرد عيوب تحميض.. فمضى محبطًا وهو يقوم بتعليق الصورة على حبل لتجفيفها .. حتى..

انفتح الباب بغتة وهو يصدر أزيزًا مخيفًا كأنه وحشٌ يتأوه.. فهب منه تيارًا باردًا كالزمهرير جعله يرتجف.. فازدرد ريقه بصعوبة ثم مضى نحو الباب و..

دفعه بغِلٍّ وهو يلعن الأبواب الرديئة التي تُفتح من تلقاء نفسها في أوقات غير مناسبة حتى تسبب لأصحابها نوبات قلبية.. ثم وقف يحدق في الظلام متوجسًا خيفة، وشعور كريه يعتريه بأنه يوجد ثمة شيء معه في الظلام.. لكنه هزَّ رأسه كمصفاة لطرد هذه الأفكار الشائبة، ثم عاد إلى الأحواض ليستكمل ما بدأه.. لكن ومع تحميض الصورة الثانية شعر بأضعاف أضعاف من الرعب.. لأن الطيْف الضبابي بدأ يتشكل ويتخذ صورة بشرية..

-لا تكن سخيفًا يا بيرتدام.. كل ما تراه مجرد عيوب تحميض.. كل هذه خيالات بسبب أوهام بيكر وتابوته اللعين.. أنت شخص عقلاني. لا تسمح لهذه الخرافات تستحوذ على تفكيرك وتمنعك من استكمال مابدأت.. كما أن هذه الصورة مفيدة جدًّا لتحقيقك بهذه الهيئة حتى مع أنك متيقن أنها

تالفة.. هيا.. تشجع.. لا تتوقف عن حلمك..

حدث بيرتردام نفسه بصوت مرتفع حتى يطرد مخاوفه ويتشجع على استكمال ما يفعله.. لكن الوضع كان يزداد سوءًا مع كل صورة.. ففي الصورة الثالثة بدا أن الشكل الضبابي هو طيف فتاة.. وفي الرابعة.. اتضح أنها فتاة ترتدي زيًّ فرعونيًّا.. وفي الخامسة.. تبين أنها ذات الكاهنة المرسومة على واجهة التابوت.. وفي السادسة.. وجد أن هذه الفتاة ترفع يدها اليمنى.. وفي السابعة.. ترفع يدها اليسرى.. وفي الثامنة.. ترفع رأسها تحاول النهوض.. وفي التاسعة.. نهضت بالكامل من التابوت.. وفي العاشرة.. تقترب من عدسة الكاميرا أكثر.. وفي الحادية عشر.. تقترب أكثر وأكثر.. وفي الثانية عشر.. أكثر وأكثر وأكثر حتى بدت ملتصقة بعدسة الكاميرا.. وفي الثالثة عشر.. تلاشت تمامًا من الصورة.. وواجهة التابوت مُصمتةٌ خالية من أي رسم أو نقوش..

في هذه اللحظة شعر بيرتردام بأنفاس باردة كالجليد تلفح مؤخرة عنقه.. فأدار رأسه للخلف ببطء، وريقه متحجر كالأسمنت من الخوف، وهو يدعو الرب أن يفقد الوعي الآن.. لكنه لم يفقده للأسف.. فرأى ما جعل عيناه تشخص من الرعب.. كان هذا أكثر مما يحتمل قلبه.

(٩)

عندما استعاد إدوارد وعيه رأى هيلينا جاثية على الأرض في حالة يُرثي لها.. عيناها بارزة لا تطرف.. أسنانها تصطك.. العرق يتفصَّد من كل جزء في جسدها حتى ابتلت كخرقة بالية.. وترتجف ..

بينما المومياء ترقد في تابوتها في سلام.. كأنها لم يمسسها أحد.. بعدها استندت هيلينا على أطرافها المتخشبة ونهضت بصعوبة وهي تلهث من الخوف.. ثم أطلقت ساقيها للريح وهي تشهق وتنتحب..

-لقد رأيت الشر.. لقد رأيت الشر.. لقد رأيت الشر..

حاول أن يمسك بها إدوارد ويسألها ماذا رأت أو ماذا حدث لكن بلا جدوى.. فدفعته هيلينا بعنف وهي تصرخ بهيستريا..

-ابتتتعد عنيييييي.. ابتتتتتتتتتتعد عنننننننننني ياملعووووووون..

ثم استقلت عربتها وانطلقت كقذيفة.. ليقف إدوارد في منتصف الشارع جامدًا كتمثال.. ذاهلاً لا يصدق ما حدث.. تأكله الحيرة عما رأته هذه الساحرة.. لكنه لن يعرف أبدًا.. لن يعرف أن هيلينا رأت ما لا يتحمله بشر.. رأت أبشع شيء في حياتها.. لن يعرف أن هيلينا رأت مصيرها المُخيف.. فقد رأت نفسها كيف تموت.. رأت جثتها وهي تحترق.

(١٠)

صحيفة الديلي إكسبريس..

وفاة كاتب رواية كلب»آل بسكرفيل»..

تنعي الجريدة بمنتهى الحزن والأسى الصحفي الشاب بيرتردام روبنسون الذي عُثر على جثته في شقته في ليفربول إثر إصابته بأزمة قلبية بعد أن تغيب عن الحضور للجريدة أكثر من أسبوع متصل..

الجدير بالذكر أن الكاتب كان يمر في الآونة الأخيرة بأزمة نفسية حادة بسبب فشل شخصيته أدينجتون وسلسلة رواياته البوليسية في تحقيق الصيت المأمول بعد أن كتب الرواية الشهيرة «كلب آل بسكرفيل» بالإشتراك مع آرثر كونان دويل.

الفصل الخامس
تايتانيك

(١)

«انظروا هاهو الموت قد شيَّد لنفسه عرشًا في مدينة غريبة وحيدة.. مدينة مطوقة برياح رافعة منسية، وبإذعان تحت السماء.. حيث الأخيار والأشرار.. والأردأ والأفضل.. قد آووا لرُقادهم السرمدي.. تحت مياه الميلانخوليا السوداء»

من المدينة التي في البحر..

إدجار آلا ن بو

*****

وقف بروس إسماي رئيس مجلس إدارة شركة الوايت ستار أمام التايتانيك العملاقة الجاثمة في حوض مياه بالفيست مُختالاً بنفسه عيناه متألقتان بالافتخار..

لقد بدت السفينة كقلعة بحرية حصينة.. أسطورة حقيقية.. بينما الصحفيين من ورائه لايتوقف وميض كاميراتهم عن السطوع وإصدار هذه التكتكة.. حتى لوح بطريقة مسرحية ولهجة مفعمة بالفخر..

-والآن أيها السادة أنتم أمام أعظم سفينة بحرية على وجه الأرض.. عملاق الوايت الستار الجديد..

فصفق الجميع في انبهار.. والجمل التي تنم على الإعجاب لاتتوقف..

-أوووووووه.. عظيم..

-ياإلهي.. هذه أضخم سفينة رأيتها في حياتي..

-مستحيل.. هذا ديناصور.. كائن خرافي بالتأكيد..

بينما بروس يتبختر وسطهم كطاووس محلقًا في عوالم أخرى من الزهو.. حتى بادره أحد الصحفيين بسؤاله..

-هل التايتانيك فعلاً لا تغرق يامستر بروس؟!!!

حينها أفرج ثغره عن ابتسامة واثقة ثم أجاب بتعالٍ وهو يداعب شاربه المفتول..

-تغرق؟!!!! هاهاهاها.. مستحيل.. هذه أكبر سفينة في العالم وأكثرها أمانًا..

ثم استأنف كلامه وهو يقهقه باستهتار ليطلق أشهر تصريح في التاريخ..

-حتى الله لايستطيع أن يغرقها.

(٢)

وقف القبطان «إدوارد سميث» في مقصورة السفينة ممسكًا بعجلة الدفة يرمق بانبهار النجوم التي تتلألأ كمصابيح في السماء المعتمة.. كانت نجوم الدب الأكبر تسطع في السماء.. وبالذات النجم إبسلون يلمع بشدة كأنه ماسة.. فنظر إلى بوصلته.. ثم زفر بقوة..

لقد اقتربوا.. سويعات معدودة ويصلون للسواحل الأمريكية..

-هذا يكفي..

هكذا تمتم سميث لنفسه.. بدا أن عمره يعرض أمامه كشريط سينمائي.. لقد مر قطار حياته في لحظات سريعة.. حياة أفناها داخل البحر أكثر من اليابسة.. تعرض فيها للموت أكثر من عشر مرات وفي كل مرة كان ينجو.. لهذا جاء قراره أن تكون هذه الرحلة هي رحلته الاخيرة وأن يعتزل الإبحار بعدها..

الآن فقط يتذكر..

منذ البداية..

يشعر كأنها منذ زمن سحيق.. كأنها منذ نشأة الكون ذاته.. عندما قاد السفينة الأولى «إس إس سيلتك» بنجاح، ثم أصبح بعدها أهم قطبان لشركة وايت ستار الملاحية.. قاد فيها أشهر سفنهم مثل «باتيك» و«أدرياتيك» و«أوليمبيك».. حتى أنهم أسندوا إليه قيادة أضخم سفن العالم وأكثرها رفاهية.. مارد البحر الجديد..

تيتانيك..

-أبي عِدني أنك لن تتأخر..

قالتها له بصوت مشتاق ابنته هيلين وهي تتداعب شاربه الأبيض ولحيته

الشهباء.. فربت على كتفيها بصوت مفعم بحب حقيقي..

-صدقيني ياحبيبتي.. هذه هي رحلتي الأخيرة في البحر.. بعدها سأعتزل وأتفرغ لـك.. وربما طلبت منك أن تساعديني في كتابة مذكراتي.. هاهاهاها..

لثمها على جبينها بحنان وهو يعانقها.. ثم نهض وعانق زوجته الجميلة إلينور.. بعدها نصب قده وشد جسده في وضع عسكري، وهو يضبط النياشين على بذلته السوداء الأنيقة.. ثم وضع القبعة البيضاء على رأسه وعيناه مغرورقتان بالدمع وهو يتفادى أن ينظر للخلف حتى لا يغير رأيه..

-أيام قلائل وينتهي كل هذا..

هكذا كان يمني نفسه.. جالت كل هذه الأفكار في رأسه.. حتى اختلجت كل خلية في جسده حينما رآه.. ظل يرقد في عرض البحر كتنين نائم.. والسفينة تقترب منه مسرعة بلاهوادة.. كشهاب طائر.. حتى اتضحت الرؤية رويدا رويدا.. فشهق من الرعب.. فالظل لم يكن وحشًا.. بل هرمًا كبيرًا.. هرم فرعوني قاتم ومئات الجثث البشرية مكدسة عليه..

ففرك عينه من الذهول.. لكن الصورة لم تتغير.. وقبل أن يستوعب ما يحدث اصطدمت السفينة بالهرم..

ثم وقعت الكارثة.

(٤)

مضى أحمد حسب يتجول في رواق السفينة.. رواق فاخر أرضيته مصنوعة من خشب البلوط.. كانت السفينة واسعة كأنها بلا نهاية.. حتى أنه شعر بالتيه.. سيضل في أي وقت.. حفظ رقم غرفته بالكاد.. E١٣٠.. التايتانيك تبدو كفندق كبير.. مدنية ضخمة عائمة في المحيط.. من رواق إلى آخر.. ومن ممر إلى ممر..

لقد ابتسم له الحظ أخيرًا.. تمكن من الهروب.. هكذا كان يفكر.. لم يعد يطيق القاهرة في الآونة الأخيرة بعد موت أبيه.. القاهرة رغم رحابتها بدت كسجن كبير.. لذا صمم أن يغادرها في أول فرصة.. يغادرها للأبد..

فباع بيته في شبرا لعمه الذي اشتراه بثمن بخس.. أقل من ثمنه الحقيقي بأضعاف بعد أن فشل في إجباره على الاستجابة لطلبه..

-يابني.. أقم معنا وسأزوجك ابنتي وتشاركني في تجارتي في العطارة..

هكذا قالها عمه ببجاحة دون مواربة.. لكن أحمد رفض معتذرًا..

-لا.. انتهى الأمر.. أريد أن أخرج من القمقم.. الآن أصبحت مقطوعا من شجرة.. وليس لي مستقبل هنا فلماذا أستمر؟!!!

-أنت أمانة في عنقي.. كيف أتركك؟ أبوك أوصاني عليك..

-أبي لم يوصِ عليّ أحد.. لو تحبه كل هذا الحب لما خدعته في ميراث أبيكما واستحوذت على نصيبه.. اتركني في حالي يا عمي قبل أن تسمع مني ما لا يروقك.

ثم وقع على ورق البيع وعمه يحدجه باشمئزاز وقد لوى وجهه.. بهذه الأموال سافر أحمد حسب إلى لندن.. وبعد أن تسكع فترة لا بأس بها.. نجح في أن يتم توظيفه لدى رجل مهم من أهم رجال أعمال المملكة المتحدة.. جون

بيربونت مورجان.. الذي أعجب بأمانته وقرر أن يرسله مع شحنة هامة إلى نيويورك على التايتانيك العظيمة.. فدفع له ٦٠ دولارًا كاملة ثمن تذكرة غرفة في الدرجة الثالثة..

ورغم أنها أقل رفاهية من الدرجتين الأخريتين.. لكنه شعر بتميز بدرجة ما شأنه أنه يسافر مع صفوة العالم على ذات السفينة خاصةً أنه المصري الوحيد..

-يااااااه.أخيرًا.. القمة..

هكذا زفر احمد بقوة عندما وصل إلى سطح السفينة.. إلى النجوم المكدسة في السماء.. حيث كان الهواء قويًّا لدرجة إحساسه أنه سيقذفه إلى قاع المحيط.. والمياه تبدو من أسفله وحشية مخيفة.. وقف على منصة السفينة.. فرد ذراعيه على اتساعهما.. والهواء يعبث به كدمية..

مشهد أسطوري.. كم هو محظوظ بحق.. هناك ملايين مستعدين أن يدفعوا أرواحهم من أجل هذا المشهد.. حينها أشارت الساعة إلى الحادية عشر مساءً.. لابد أنها الواحدة ظهرًا في القاهرة الآن.. لكن ألح عليه هاجس بأن يهبط للأسفل ليطمئن على هذه الأمانة..

فهبط من طابق إلى آخر.. ومن درج لدرج.. حتى نجح في التسلل للمخزن.. تجاوز غرفة الرسائل البريدية الضخمة التي حملت أكثر من ٦٠ ألف رسالة.. حتى وصل أخيرا إلى المخزن ذاته.. مخزن شاسع بدا كأنه متحف مصغر..

متحف يعج بعشرات السيارات الكاديلاك.. آلاف البضائع الموثوقة.. نسخة مرصعة من الذهب من رباعيات عمر الخيام.. ولوحات فنية عديدة من ضمنها لوحة la cirassean au baim لجوزيف بلوسل..

مضى بتؤدة كملك مُظفر حتى وصل إلى وجهته.. التابوت.. أخبره سيده أن هناك شخصًا اسمه توم سيون سينتظره في ميناء نيويورك مهمته أن يصطحبه حتى يوصلاها للمتحف..

بالتأكيد هذه المومياء محظوظة.. فقد سافرت إلى أرض لم يبلغها أقرانها.. وإن كان هناك بعض النظريات ترى أن الفراعنة وصلوا إلى المكسيك وشيدوا أهرامًا هناك..

شعر أحمد بتأنيب ضمير لبرهة لأنه يهرب قطعة من آثار بلده للخارج.. لكنه قتل ذلك الإحساس بقوله إن المومياء نفسها لابد أنها سعيدة لأنها ستسافر إلى العالم الجديد..

لكن كل هذه الأفكار والصراعات تبخرت عندما وصل إلى التابوت.. تلاشت فورًا وتبقي فقط شعور واحد.. الرعب..

فقد كان التابوت مفتوحا على مصراعيه.. ولم تكن المومياء داخله.

(٥)

ملاكٌ صغير..

هذا هو الوصف الأمثل لجيجي ذات السنوات الخمس والشعر الذهبي المجدول التي غطت في نوم عميق تحلم.. تحلم بأنها تلهو في إحدى الحدائق الفيروزية مع أقرانها الأطفال وضحكاتها تجلجل في أصقاع السماء.. لكن شيئًا ما قطع عليها سعادتها وجعلها تستيقظ بغتة.. تستيقظ وحيدة.. فلم تكن أمها معها في الغرفة.. ولا دميتها أيضًا..

فارتعدت..

زيييييييييي‌ء..

سمعت جيجي صرير باب غرفتها يفتح من تلقاء نفسه.. فهبطت من فراشها.. ثم خرجت من غرفتها ببطء وهي تتلفت يمينًا ويسارًا.. لكنها لم تر أحدًا.. باستثناء دميتها القطنية الملقاة في نهاية الرواق..

فابتهجت.. لكن قبل أن تتحرك شبرًا واحدًا.. ظهرت سيدة مريبة جثت على ركبتيها التقطت دُميتها ثم ابتسمت لها.. وخرجت من الرواق.. لكن جيجي طفلة عنيدة.. حتى مع سنها الصغير وتعليمات أمها الصارمة بألا تغادر الكابينة في غيابها لكنها بالتأكيد ستغفر لها حينما تعلم السبب..

هذه هي دميتها.. التي لن تسمح لأي شخص – حتي لو كان من الكبار- أن يسلبها إياها.. فاندفعت تهرول في الرواق بطريقة مضحكة كفرخ صغير وذيل جلبابها الأبيض يتطاير من خلفها.

(٦)

هي الليلة الخامسة منذ انطلاق التايتانيك.. الرابع عشر من أبريل عام ألف تسعمائة واثنا عشر.. كانت السماء صافية خالية من القمر.. مكتظة بعناقيد نجوم ساطعة كالماس.. بينما يبدو سطح الأطلسي كألواح زجاج مصقول.. والسفينة السوداء ذات الأربع مداخن لم تكن أكبر سفينة على وجه الأرض فقط لكها أكثرها سحرًا..

السفينة التي يتواجد على متْنها أشهر وأكثر رجال العالم ثراءً حتى الكلاب ذاتها لمسافري الدرجة الأولى بدت أنيقة مثلهم.. في هذه اللحظة وقف فريدريك فليت في برج المراقبة يرتجف من البرد.. ينفث في يديه ويزفر الدخان كتنين.. أما صديقه النحيل رينالد لم يكن أسعد حالا..

وقتها كانت السفينة تمضي بأقصى سرعة لها.. اثنا وعشرين ونصف عقدة بتعليمات بروس إسماي نفسه رئيس مجلس إدارة شركة الوايت ستار الذي بدا متعجلاً لأنه مرتبط ببعض الأعمال..

كان المراقبان يحدقان في الظلام الدامس كبومتين حتى رأى فريديريك من بعيد ظلاً أسود.. ظل أكثر قتامة من الظلام نفسه.. بدا من بعيد كتلة صغيرة لكن كلما اقتربوا يزيد في الحجم بدرجة مرعبة..

فأطلق جرس السفينة ثلاث مرات ثم التقط سماعة الهاتف متوترا حتى رد عليه في الخط المقابل صوت بارد وموسيقى أوبرالية تدوي في الخلفية..

-مالأمر.. ماذا تريد ياصاح؟!!!

فأجابه فريدريك بصوت مذعور حمل كل رعب الدنيا..

-كارثة.. جبل ثلج.. أرى جبل ثلج يرتفع أكثر من مئة قدم فوق الماء..

بعدها بسبعة وثلاثين ثانية ظل فريدريك يحدق بعين شاخصة في الجبل الماثل أمامه بينما السفينة منطلقة كمارد لم تتزحزح شبرًا واحدًا عن مسارها..

حتى بدأ يبتهل إلى الله بصوت مبحوح ودموعه محتشدة في مقلتيه..

-ياإلهي.. هلمي انحرفي.. بحق السماء انحرفي..

لكن السفينة العملاقة كانت بطيئة في الاستجابة.. بدا واضحًا أنها ماضية بعزم أكيد نحو حتفها.. نحو الاصطدام المروع.. نحو الكارثة.

*****

وقت الاصطدام كان أغلب الركاب يغطون في نوم عميق.. لهذا تفاوت إحساسهم به.. فبعضهم شعر به مثل شفرة حلاقة تمر على الجلد.. آخرون شعروا به كثوب يتمزق.. ومجموعة ثالثة شعرت به كزلزال متوسط الدرجة..

في هذه اللحظة دخل كابتن سميث القبطان غرفة القيادة وهو يفرك عينيه ويضبط قبعته.. ثم سأل الضابط مردوخ مذعورًا..

-ماذا حدث.. ماذا كان ذلك؟!!!

فأجابه مردوخ بصوت متحشرج..

-ل.. لقد ضربنا جبلاً جليديًّا يا سيدي..

هنالك جحظت عينا سميث من الرعب.. بدا له أن الكابوس الذي راوده يتحول إلى واقع.. ورغم خبرته الكبيرة التي تجاوزت أكثر من ثمانية وثلاثين عاما من الخدمة مع الوايت ستار.. ورغم أنه لم يكن مجرد قائد كبير بالخط فحسب وكان مثل بطريرك ملتحي يحتذي به الطاقم والركاب.. مزيج عجيب من الحزم والتحضر..

بدا مرعوبا.. فقال بلهجة حاسمة يحاول بها إخفاء بركان الخوف داخله..

-حسنا.. أغلق الآن أبواب الطوارئ وارفع الحواجز فورًا..

ثم استطرد حازمًا..

-وانقل لي تقريرًا عاجلاً بالتلفيات التي وقعت للسفينة.. هيا..

فرد عليه مردوخ في إذعان..

-أوامرك ياكابتن..

في هذه اللحظة دلف الكابينة بروس إسماي ذو العينين الحادتين والشارب المفتول.. الصورة النمطية للأرستقراطي الثري.. فقال وهو يلف الروب حول خصره بصوت منزعج..

-ماذا حدث يا كابتن؟!!! ماذا كان هذا؟!!!

فأجابه سميث إجابة مبتورة بصوت مكتئب..

-لقد ضربنا جبلاً جليديًّا..

ران الصمت للحظات.. صعقت الكلمات بروس إسماي.. نزلت على رأسه كصخور جبل متصدع.. شعر بتنميل في أطرافه.. على الأرجح سيصاب بالفالج في لحظات.. فقال بصوت مذهول وعينين شاردتين..

-وهل حدثت أي أضرار؟!!!

فسكت سميث للحظة وهو يحول تجنب النظر في عينيه.. ثم رد عليه بعينين زائغتين وصوت مرتبك..

-هذا ما نحاول حصره ياسيدي.. لكني أخشى ذلك.

(٧)

قلب أحمد المخزن رأسًا على عقب لكنه لم يجد أثرًا للمومياء.. كأنها تبخرت في الهواء أو بعثت فيها الحياة وغادرت التابوت بمفردها.. كان مجرد التفكير في الهاجس الأخير يصيبه بالرعب والرغبة في الفرار بأقصي درجة.. لكن هذا مستحيل.. يمكن أن يكون أحدهم سرقها.. لكن العجيب أن التابوت مرتفع القيمة تُرك مفتوحًا، ثانيا.. من يجرؤ على سرقة مومياء متحللة من آلاف السنوات؟!!!!

خرج من المخزن وهو يشعر بالخوف والغضب في آن واحد.. بالتأكيد مستر جون بيربونت مورجان لن يسامحه.. سيعاقبه عقابًا أسطوريًّا أشد من عقاب بروميثيوس عندما سرق النار..

-سيبتلعني في كرشه الهائل.. إن لم يعلقنِ قبلها من مؤخرتي..

هكذا تمتم أحمد لنفسه في مرارة.. للأسف سوء الحظ لا يزال يطارده حتى خارج بلاده..

-وبسبب مصريّ أيضًا..

هكذا ضحك في سخرية.. حتى ترنح فجأة وهو يشعر بهزة كزلزال.. فاستند على الحائط.. ثم بعدها بلحظات معدودة توقفت السفينة عن الحركة.. مضي أحمد حسب يجر أذيال الخيبة لا يعرف من أين يبدأ البحث حتى رأى أحد عمال الفحم يهرول مذعورًا.. كان على وشك أن يسأله..

-هل رأيت مومياء حية يا سيدي؟!!!!

لكن ملامح وجهه المرتعدة منعته.. فأمسكه من ذراعه وسأله بفضول..

-ماذا حدث؟!!!

فتملص الرجل من قبضته.. ثم دفعه كجرذ مذعور وهو يصيح..

-اتركني.. لقد ضربنا جبلاً جليديًّا..

ثم فر من أمامه.. لم يستوعب أحمد ما سمعه.. شعر أن السماء سقطت فوق رأسه.. لقد بدت أن هذه السفينة حصينة وأقوى من أي شيء في الكون.. مارد منيع.. بدت كوحش أسطوري مثل وحش لوخ نس وأسبيدوشيلون.. حتى وجد قدماه تقوده إلى غرفة الغلاية الخامسة.. الغلاية التي بدت كفرن كبير.. حيث ضجيج الآلات.. وقرقعة النيران.. وكميات هائلة من الفحم.. وعمال شعث يبدون كمن سقطوا في بحيرة من الطين.. لكن المشهد كان مروعًا.. فوضى عارمة.. من أحد الثقوب تدفق الماء بدون انقطاع كفيضان.. والعمال يركضون في كل حدبٍ وصوبٍ حتى سمع أحدهم يصرخ في ارتياع..

-لقد غرقت غرفة الغلاية الرابعة..

فصاح شخص آخر أصلع يبدو رئيسهم..

-ارفعوا الحواجز..

شغلوا المضخات حتى نطرد الماء..

فجَأَرَ آخر..

-المضخات لا تستطيع أن تتحمل كل هذا..

فصرخ آخر في جزع..

-هذه معطوبة.. الثانية لا تعمل.. كتل الفحم علقت في الصندوق الخاص بها.. لقد علقنا جميعًا.. لا يوجد أمل.. تدفق الماء أكبر من قدرتنا.. ستغرق هذه الغلاية بلا شك..

حتي رآه أحدهم فصاح فيه غاضبًا..

-ماذا أتي بك إلى هنا ياأحمق.. اخررررررررررررررررررج!!

حينها أدرك أحمد حقيقة ما يحدث.. الحقيقة المهولة.. السفينة تغرق.

(٨)

-أووووووووووه.. الاسترخاء أخيرًا..

كانت هذه حالة إليزابيث داوتيل وهي ترقد في المغطس بعين مغمضة تغمر جسدها الغض المياه المنعشة ورغاوي الصابون.. فالتقطت نفسًا عميقًا وهي تفكر في وجهتها القادمة.. بلد الأحلام.. أمريكا العظيمة.. مكان جديد لبدء حياة جديدة.. فمنذ أن مات زوجها في إحدى غارات الهنود على الجنود البريطانيين في الهند وحياتها جحيم حرفيًّا.. كان يمكن الصبر لو هي بمفردها.. لكنه ترك لها قطعة لحم.. طفلة رضيعة جميلة اسمها فيرجينيا.. فتنقلت بين البيوت كمربية أطفال حتى نجحت في التوظف لدى عائلة ثرية.. وها قد مر الوقت وأصبحت رفيقتهم في سفينة الرفاهية الأسطورية.. التايتانيك..

كانت هذه السفينة مثالاً مصغرًا للعالم بجماله وقبحه.. بروعته وعنصريته.. ورغم فقرها وأنها تقيم في الدرجة الثالثة.. لكنها بالتأكيد أفضل حظًّا من أقرانها من الخارج..

-على الأقل هذه السفينة خالية من الجرذان..

هكذا تمتمت إليزابيث لنفسها مبتسمة..

وأخيرًا بعد وقت طويل بدأ يحدوها الأمل بأن يبتسم لها الحظ مرة أخرى.. لكن إليزابيث استفاقت من خواطرها وجفلت فجأة حينما اضطربت السفينة اضطرابًا خفيفًا.. حتى لاحظت أن سطح الماء المستوي بدأ يميل.. فنهضت وجففت جسدها سريعا ثم ارتدت بشكيرًا وخرجت.. حتى إذا دخلت غرفتها صرخت.. لم تكن ابنتها جيجي في الداخل.

(٩)

دلف المهندس توماس أندروز إلى غرفة القيادة بوجه شاحب مرتبك يرفل في بذلته السوداء الأنيقة ورابطة عنقه التي لا تغادرها أبدًا.. حالة مزرية على النقيض تمامًا لحالته عندما استقل تايتنك للمرة الأولى.. وقتها شعر بأن له جناحات مثل بيجاسوس المجنح وأنه يحلق في السماوات بالمعني الحرفي.. كان فخورًا بها كفخر أم بوليدها.. يريد أن يقول للجميع إن هذه هي تحفته الخالدة.. تحفته التي دخل بها التاريخ من أوسع أبوابه وستخلد اسمه بين عظماء المعماريين.. كان يشعر أنها ابنته.. يحبها.. يشعر بها.. يفهمها.. كما يفهم الناس الخيول..

فسأله بروس إسماي وعيناه زائغتان والقلق يتواثب فيهما..

-مارأيك ياسيادة المهندس.. هل نحن نغرق؟!!!

لكن أندروز تجاهله كأن لم يسمعه.. فقط وضع الخريطة على المنضدة ثم وجه للقبطان سميث سؤالاً واحدًا.. إجابته ستحدد مصيرهم..

-إلي أين وصلت المياه؟!!!

وعي سميث ما يرمي إليه أندروز.. فأجابه بصوت خفيض مستسلم وعيناه منكسرتان..

-لقد وصلت إلى المقصورة الخامسة ياسيدي..

فبهت وجه توماس انردوز من الصدمة.. شعر بأن صخور الجبل الجليدي ضربته هو شخصيًّا.. برودة عارمة تعتري جسده.. فاستطرد شارحًا..

-السفينة تتكون من ستة عشرة غرفة مرجل.. يمكن فصلهم عن بعضهم البعض بحواجز عازلة.. وهذه هي مصدر قوة السفينة.. فلو امتلأت مقصورة عن آخرها بالماء ستطفوالسفينة أيضًا.. اثنان ستطفو.. ثلاثة ستطفو.. أربعة ستطفو.. أما لو خمسة فهذا يعني..

فقاطعه إسماي في هيستريا كأنه أصابه الجنون..

-لا لا تُكمل.. لاتقل إنها تغرق..

التايتانيك لا يُمكنها أن تغرق بأي حال.. هذه السفينة الخارقة أقوى وأشد من قلعة وندسور ذاتها.. لن تهزمها أي كارثة طبيعية..

لكن سميث أشاح بنظره ونظر نحو أندروز وهو يعض شفتيه في مرارة..

-إذن نحن نغرق..

فأومأ أندروز برأسه.. فسأله سميث مرة أخرى..

-كم لدينا من وقت تقريبًا؟!!!

فأجابه أندروز والرعب واليأس يتنافسان على أكْل وجهه..

-أمامنا ساعة على الأرجح..

عقد سميث يديه خلف ظهره ثم قال بحزمٍ قائد..

-إذن سأتخذ قراري..

ثم خرج من المقصورة وإسماي يتبعه ويمسك بكم بذلته ويسأله بصوت ملهوف..

-ماذا ستفعل يا كابتن؟!!! ماذا ستفعل؟!!!!

فصمت لوهلة كأن الزمن تجمد في هذه اللحظة.. وهما يحدقان في بعضهما البعض كأنهما يتبادلان الحديث بلغة صامتة..

شعر حينها أنه أبكم.. صوته يخرج منه بالكاد.. أحباله الصوتية تحتاج إلى الفحم نفسه حتى تولد صوت من جديد..

حتى نطقها بصعوبة..

-سأُخلي السفينة.

(١٠)

-إننا نغرق..

نزلت هذه الجملة على أذن أحمد كالصاعقة.. كان العمال يُجاهدون في إخراج المياه التي تتدفق بلا انقطاع كسيلٍ عَرِم.. كأن المحيط افتتح له فرعًا جديدًا داخل السفينة.. فخرج وهو يترنح كَسِكيرٍ، وجملة واحدة تدوي داخل رأسه..

-انج بنفسك..

فخطا بسرعة بين الأروقة حتى يصعد أعلى السفينة..

وعندما وصل إلى الطابق الخاص بركاب الدرجة الثالثة وجد الركاب يتوافدون.. كل شخص يحمل ما يمثل له قيمة.. حتى بدأت تتشكل حشودًا متماوجة كقطعان الجاموس.. لكنهم اصطدموا بالبوابات الحديدية تمنعهم من الصعود وخلفها رجال أمن السفينة يطالبونهم بالاستكانة والهدوء..

قبلها بقليل خرجت إليزابيت دواتيل من غرفتها كالمجنونة تبحث عن ابنتها تطرق بابًا بابًا..

-سيدي معذرة.. هل رأيت طفلة صغيرة.. شقراء ذات جدائل ذهبية ترفل في جلباب أبيض وتمسك بدميتها؟!!!

-سيدتي.. معذرة.. هل رأيتي طفلة صغيرة.. شقراء ذات جدائل ذهبية ترفل في جلباب أبيض وتمسك بدميتها؟!!!

لكن الإجابة كانت بالنفي في كل مرة.. بعضهم قالها بتهذيب وهو يمصمص الشفاه أسفًا عليها ويطمئنها أنها ستجدها بلا شك.. وآخرون قساة كأحجار الصوان.. أغلقوا الباب في وجهها بغلظة.. حتى رأت المشرفين على السفينة يهرولون بوجوه شاحبة والخوف يكسو ملامحهم يطرقون الأبواب وهم

يصيحون..

-السفينة تغرق.. فلتجتمعوا في الرواق حتى نصدر أمرًا بالتحرك..

وفي خلال دقائق معدودة بالفعل تجمع معظم الركاب في الرواق يصدرون ضجيجًا كالنحل.. أغلبهم يمزح.. يظن أن ما يحدث نوعًا من العبث.. أو أنها تجربة على مواجهة الغرق.. لم يفكر أحدهم أن هذه السفينة الحصينة والتي ابتاع بعضهم تذكرتها بكل ما يملك يمكنها أن تغرق.. هذا احتمال غير وارد.. لكن وجوه المشرفين نطقت بالحقيقة المخيفة.. وجوه باهتة كالموت نفسه.. حتى بدأت الأخبار تتسرب إلى الركاب البائسين بأن الأمر حقيقي.. فبدؤوا يتصايحون ويتدافعون.. بينما إليزابيث تصيح بصوت متهدج في أحدهم..

-أرجوك اسمح لي بالخروج.. ابنتي بالخارج وحدها..

لكن المشرف دفعها ورفع في وجهها فوهة السلاح وهو يتوعدها..

-ابتعدي يا امرأة عن الحاجز الحديدي.. لو اقتربتِ شبرًا واحدًا سأفرغ في أحشائك طلقات السلاح..

كان الجو متوترًا.. ثورة.. صياح.. سباب.. بكاء.. الصدور ضيقة حرجة كأنما تتصعد في السماء.. لكن أحمد نجح في التسلل من خلال ثغرة وجدها.. وتسلق مقدمة السفينة كاالشمبانزي حتى نجح..

الآن هو راكب من الدرجة الأولى.

(١١)

دخل القبطان سميث متجهم الوجه إلى غرفة اللاسلكي.. آمرًا ضابط الاتصال بنغمة حاسمة..

- استعد لإرسال استغاثة..

ثم فكر للحظات وقال له..

-اكتب..

أغيثونا.. لقد صدمنا جبلاً جليديًّا..

نظر نحوه الضابط بوجه ممتقع وطائر الخوف يرفرف على رأسه..

-حسنا.. ماهي إحداثياتنا؟!!!

-١٤,٤٦ شمالاً.. ٥٠,١٤ غربًا..

ثم ربَّت على كتف الضابط وهو يسأله..

-كم نملك من صواريخ الاستغاثة يا روث؟!!!

فقال في إذعان..

-٦ ياكابتن..

-إذن.. أطلق صاروخًا كل ٥ إلى ٦ دقائق.. عسى أن تلتقط أي سفينة رسالتنا وتهب لنجدتنا..

ثم خرج.. كان أكثر ما يُؤرق سميث أن القوارب عددها أقل من عدد الركاب.. فكل ما يملكون هو ١٦ قاربًا فقط.. سعتهم الإجمالية ١١٧٨ بينما عدد الركاب ٢٢٠٧.. أي أكثر من ألف راكب لو غرقت السفينة سيكون مصيرهم في جوف البحر..

كارثة بكل تأكيد.. فمضى خطواتٍ شاردًا ثم أشار لمردوخ وهو يأمره بصوت حازم..

-كابتن مردوخ.. اطلب من الجميع إنزال القوارب من الروافع الخاصة بها.. سياستنا.. النساء والأطفال أولاً.. أكرر.. هل تسمعني؟!!! النساء والأطفال أولاً..

فأومأ مردوخ رأسه في إذعان..

-أوامرك ياكابتن..

ثم انطلق..

ثم أمر ضابطًا آخر..

-أريدك يا ديفيد أن تحضر الفرقة الموسيقية للسطح لتعزف.. لا أريد أن ينزعج الركاب..

بعدها بثوان بدأت السفينة تضيء بالصواريخ المشتعلة.. في وقت آخر ربما يكون مصدر بهجة.. لكنه الآن يعني وقوع كارثة.. ثم عقد يديه خلف ظهره مجددًا وهو ينظر نحو مقدمة السفينة، والركاب يتوافدون، وسترات النجاة مثبتة على أجسادهم.. فتمتم وهو يعض شفتيه أسفًا..

-فليكن الرب في عوننا !.

(١٢)

-حتى المصريين يلاحقونك في غربتك يا تعيس..

هكذا تمتم أحمد لنفسه، فور أن نجح في التسلل إلى طابق الدرجة الأولى من خلال ثغرة بعد أن ضرب أحد الضباط.. كان يحث الخطى.. يتنقل بين غرف الدرجة الأولى سريعًا.. غرف آية في الجمال بعضها تصميمها يشبه جناح لويس السادس عشر نفسه.. وأخريات تشبه أجنحة فندق ريتز.. غرف شاسعة بدت كأنها الجنة ذاتها..

فعبر عبر غرفة الجمانزيوم.. ثم صالة الإسكواش.. فحمام السباحة.. كافيه بارسيان.. غرفة التدخين.. حتى وصل أخيرًا إلى غرفة الاستقبال حيث الفوضى العارمة.. وصياح المشرفين.. وهيستريا الركاب الأثرياء المشغولين بارتداء سترات النجاة..

فتجاوزهم حتى لفتت انتباهه ساعة برونزية على صورة حوريتين متعانقتين.. تشير عقاربها إلى الساعة الثانية عشر صباحًا بالضبط.. فتجاهلها ثم استكمل فراره مسرعًا والسفينة تميد إلى أن وصل للسطح..

حتي رآها هناك عند مقدمة السفينة..

طفلة تبكي..

بصحبتها سيدة..

سيدة تشبه صورة المومياء!!!!.

(١٣)

أُقفلت الحواجز الحديدية تمامًا.. والركاب ثائرون كقطعان الجاموس المذعورة يصرخون..

-افتحواااااااا لنا ياأوغاد.. نحن نمووووووووووووووووت..

لكن الضباط صاحوا فيهم وهم يشهرون أسلحتهم..

-تراجعوا.. لم تحن لحظة الإخلاء بعد..

فصاح فيهم رجل بدين..

-سنموت من أجل ركاب الدرجة الأولى الأوغاد.. حتى في الموت تفرقون بيننا..

كان المشهد مريعًا.. أمواج من البشر تتدافع نحو البوابات والضباط مشهرين الأسلحة.. ثم ازداد الجنون والهياج عندما بدأت المياه تتسرب.. فاندفعوا كتلة واحدة نحو البوابات..

ضربة..

فثانية..

فثالثة..

حتى تحطمت الحواجز.. واندفعت الحشود تضرب الضباط وتدهس أجسادهم..

مشهد ثوري مخيف يشبه اقتحام الثوار لحصن الباستيل.. وصلت الحشود إلى سطح السفينة فهرولوا في كل اتجاه.. إلا إليزابيث هائمة على وجهها.. تهتف كالمجاذيب وهي تبكي..

-جيجيييييييييي !!!.

(١٤)

أمسك كابتن سميث بمكبر الصوت وأخذ يجأر..

-النساء والأطفال أولاً.. النساء والأطفال أولاً.. ليرتدي الجميع سترات النجاة..

كان المشهد مريعًا.. أسوأ مارآه في حياته.. السفينة تميل.. القوارب يتم إنزالها.. والركاب يتنافسون عليها كالوحوش الضارية يهرعون للفرار من السفينة الغارقة.. بدا واضحًا أن كل شيء قد انهار..

فاقترب منه جاكوب أستوري بقبعته الطويلة وشاربه الكثيف.. أكثر الرجال ثراءً على متن التايتانيك.. وهو يقول بلهجة متهكمة..

-ماهذه الفوضي؟!!! أظن أننا آمنون على هذه السفينة أكثر من هذه القوارب التافهة..

لكن سميث رد عليه فورًا..

-معذرة ياسيدي.. لكنك غير محق بالمرة.. علي الأرجح في خلال ساعة ستكون السفينة في قاع المحيط المتجمد..

تماوجت الحشود كيوم الحشر.. ومع ذلك فقد كان المشهد مثيرًا للمشاعر أيضًا.. متخم بالمشاعر الإنسانية واللحظات الدرامية.. فخوان مارتين قبل زوجته للمرة الأخيرة يأمرها بالمغادرة وهي تعانقه مصممة على ألا تتركه..

-لا.. لن أغادر.. سأنتظر معك ياحبيبي..

-لا.. أنا لم أطلب منك شيئًا طوال حياتي ياحبيبتي.. هذه هي رغبتي الحالية.. هذا أمر.. لا تخافي.. ستكون الأمور بخير.. سألحق بكِ في القوارب التالية.. تشجعِي ياحبيبتي.. تشجعِي..

وعلى بعد أشبار قليلة عانق مارك فورتيشن زوجته وبناته الثلاثة وهو يبكي

وينتحب ويودعهم للمرة الأخيرة..

أما آرثر زيرسون فرفضت أن تغادر السفينة وتترك زوجها المسن وحيدًا فقالت له بصوت متهدج مفعم بحب حقيقي..

-لقد اعتدت طوال حياتي أن أكون معك.. بدونك أنا لا أساوي شيئًا.. فلماذا أتركك الآن؟!!! أينما تكون سأكون..

فقال لها وهو يئن..

-من فضلك يا حبيبتي.. اتبعِ التعليمات وغادري مع بقية السيدات..

لكنها أبت وانفجرت في بكاء عنيف..

-لا.. لن أتركك ياحبيبي أبدًا.. لقد بقينا خمسة وعشرين عامًا سويًّا.. أنت قدري.. لن أغادر بدونك.. يستحيل..

ليدخلا غرفتهما متعانقين ويتمددا على الفراش.. حتى قالت له للمرة الأخيرة بصوت مرتعش وهي تلتصق به..

-أنا أرتجف.. عانقني يا حبيبي.. عانقني بشدة..

فعانقها والمياه تفور من أسفلهما تشهد نهايتهما سويًّا..

أما ألكسندر كومبتون فأصرت أمه ألا تتركه..

-لا.. لن أتركك ياحبيبي.. أنت ابني الوحيد..

لكنه نهرها والدموع تنهمر على وجنتيه..

-لا تكونِي حمقاء يا أمي.. السفينة تغرق.. فرًّا بأرواحكما أنتِ وأختي.. أرجوكِ..

كان سميث يتابع المشهد من بعيد وهو يجز على أسنانه.. يقاوم بمشقة ألا تفلت الدموع منه.. يتمنى لو مات قبل هذا.. أقصى آماله الآن أن ينقذ أكبر قدر من الأرواح.. فأخذ يصرخ..

-يا سيداتي لاتترددن.. لا يوجد وقت.. اصعدنَ القوارب..

ورغم ذلك فظهرت بعض المواقف الكوميدية أيضًا.. فهناك في القارب رقم ٥ وهم يستعدون لإنزاله أخذت فتاة تصيح بجنون..

-لقد نسيت صورة جاك حبيبي.. توقفوا.. يجب أن أحضرها..

ثم قفزت من القارب كالصاروخ متجهة إلى غرفتها..

على مقربة ظهرت سيدة سمينة تصيح بهيستريا لأنها مصابة بالأجروفوبيا.. رهاب الأماكن المفتوحة..

-لا.. لاااااااااا.. لاأريد أن أبقي في قارب مفتوح.. لم أستقل قاربًا مفتوحًا من قبل.. لاااااااااااااا..

لكن يظل موقف المليونير بنيامين جوجنهايم من أشهر المواقف.. المليونير الشهير الذي رفض المغادرة قائلاً باعتزاز..

-لا.. لن أخرج وأفر كالجرذان..

ثم دخل غرفته وارتدى حلته المفضلة.. قبعة طويلة وقميص أبيض وبذلة سوداء كأنه يستعد لحضور إحدى الحفلات.. ثم قال في شموخ وخادميه بجواره..

-لقد ارتديت أفضل ما لديَّ.. الآن سأموت نبيلاً..

ثم أعطى ورقة للضابط مردوخ وهو يقول له..

-أرجوك ياكابتن أخبر زوجتي أنني فعلت أفضل ما بوسعي.. وأنني كنت مخلصًا لها طيلة عمري.. أخبرها أن جوجنهايم رفض أن يأخذ مكان النساء والأطفال.. أخبرها أنني لم أكن جبانًا..

ثم ذهب إلى مقعد وجلس عليه شامخًا وهو يحتسي كأس نبيذ للمرة الأخيرة والمياه تتدفق من أسفله.

(١٥)

كان والس هنري قائد الفرقة الموسيقية يعزف على الكمان وزملائه يشاركوه العزف.. روجر بريكو.. جوك هيوم.. وآخرون.. موسيقى مبهجة في البداية.. لكن مع مرور الوقت وتصاعد الأحداث صارت كئيبة مقبضة..

تجاوزهم أحمد حسب حتى وصل إلى مقدمة السفينة المغمورة بالمياه.. كانت المياه باردة كالسكين.. لكن المرأة اختفت ووجد فقط الطفلة تبكي وتصرخ في خوف وجزع..

-أريد ماماااااااا.. أريد ماماااااااا

فاحتضنها وأخذ يركض بها.. ثم اتجه إلى أحد القوارب مخترقا الحشود وهو يقول لأحد الضابط المسئولين عن الإنزال..

-سيدي.. هذه ابنتي.. أرجوك خذهاااااا في القارب..

في هذه اللحظة لمحتها إليزابث دواتيل كالصقر.. فركضت نحوها وقد بعثت الحياة فيها من جديد.. فالتقطت ابنتها منه وهي تعانقها وتقبلها في كل بقعة في وجهها..

-أين ذهبتِ يا حبيبتي؟!!! كدت أموت كمدًا عليكِ..

فأجابتها جيجي ببراءة..

-المرأة يا ماما.. المرأة التي سرقت دميتي..

فهزت إليزابيث رأسها دلالة عدم الفهم..

-أي امرأة.. أنا لا أفهم شيئًا..

ثم استطردت شاكرة أحمد بعينين ممتنتين..

- أشكرك يا سيدي.. كل خلية في جسدي ممتنة لك.. صدقني مهما قلت لن توفي الكلمات قدرك.. قدري أن جيجي ابنتي طفلة شقية..

فلوح لها معتذرا..

-عفوا.. أنا لم أفعل شيئًا.. المهم الآن أن تصعدا للقارب.. هيا.. لا يوجد وقت..

ثم تراجع للوراء بعد أن اطمئن لاستقلالهما القارب وشعورًا غريبًا يسطو عليه.. فلأول مرة في حياته يشعر بهذا القدر من الرضا عن نفسه.. صحيح.. ربما لن ينجح في الوصول لأمريكا.. ربما سيكون الموت مصيره.. لكن هذه هي اللحظة المثالية للموت.. فتمتم بصوت ضاحك..

-على الأقل.. أنا المصري الوحيد الذي سيلقى مصرعه في التايتانيك..

ثم أخذ يتقهقر وهو يبتسم.. يبتسم للمرة الأخيرة..

في ذات اللحظة.. ظهر توماس أندروز للمرة الأخيرة في غرفة التدخين ذراعاه معقودان على صدره يُحدق بانكسار في لوحة كبيرة كأنّه منومٌ مغناطيسيًّا.. لوحة يظهر فيها تمثال الحرية والسفن والقوارب في الماء تحيط به.. لوحة الوسيلة لعالم جديد

..The approach to new world

أما في الخارج فقد امتلأت مقدمة السفينة بالمياه بالكامل حتى مالت بعنف.. في هذه اللحظة ربت سميث على كتف مردوخ بعد إنزال جميع القوارب قائلاً له..

-لقد فعلتم ما بوسعكم.. لن تستطيعوا أن تفعلوا أكثر من ذلك.. الآن فليغادر الكل مكانه.. ولينج كل رجل بنفسه..

ثم دخل إلى قمرة القيادة.. مطرق الرأس.. كاسف الوجه.. يترنح كقائد مهزوم..

بينما من خلفه تدوي معزوفة.. «أقرب يا إلهي إليك».. آخر معزوفة عزفتها

الفرقة الموسيقية..

فأخذ يتمتم بكلماتها التي كتبتها سارة فلورز.. والدموع محتشدة في مقلتيه..

بالرغم من كوني هائم..

وقد رحلت الشمس..

والظلام جاثم فوقنا..

وفي راحتي حجر..

لكني في أحلامي..

سأكون أقرب يا إلهي إليك..

سأكون أقرب ياإلهي إليك..

أقرب إليك..

ثم أقفل باب القمرة والدموع تفر على وجنتيه متمتما بصوتٍ مُتهدج..

-فلترسل رحمتك يا إلهي.. ولتحملني الملائكة إليك..

ثم وقف يُحدق في المياه المتراكمة أمامه حتى صم ضجيجها أذنيه..

فوضع يده على عجلة القيادة وهو يبتلع ريقه في مرارة.. حتي حطمت المياه الواجهة الزجاجية كالطوفان.. والتهمته..

بعدها بدقائق مالت السفينة للأمام حتى انشقت من المنتصف وهي تصدر زئيرًا مخيفًا كوحش يحتضر.. ثم غابت أضوائها بالكامل.. والبحر يبتلعها في أحشائه بالكامل..

في هذه اللحظة عبر شهاب فوق السفينة الغارقة فقالت إحدى الناجيات بأسى..

-القول المأثور صحيح.. عندما يسقط شهاب.. يموت أحدهم.

الفصل السادس
القاهرة

(١)

أظن أنه ستدون في إنجازاتي كمدير للمتحف أنني تخلصت من هذه المومياء النحس.. هذا لو وصلت بالمومياء إلى وطنك بسلام.. هاهاها..

أنهى آسر قراءة آخر صفحة في الكتاب بقلب مقبوض.. لا يُنكر أن الخوف تسلل إليه، يعبث الآن في أراضيه بكل بجاحة.. الغريب أنه بعد حادثة التايتانيك انقطعت لعنة المومياء تمامًا ولم ترد أي أخبار عنها.. لكنه يعلم ماحدث..

لقد غرقت المومياء في المحيط.. ونجحوا في انتشال التابوت فارغًا ليعود مرة أخرى إلى المتحف البريطاني في لندن.. لكن هذا ليس حقيقي تمامًا.. لقد نجحوا بطريقة ما فيما بعد في العثور على المومياء لكنها هذه المرة ذهبت إلى مكان آخر.. متحف جامعة باليفست في أيرلندا.. المدينة التي صُنعت فيها التايتانيك..

تعاقبت الأجيال بعد ذلك ونسي الجميع الأمر برمته.. وعُدت لعنتها من ضمن الأساطير.. وسواء كانت هذه القصة الحقيقية أو لا فما فعله الآن أول مرة يحدث منذ عام ١٩١٢.. فقبل أن يسافر إلى لندن كانت مهمته الأصعب تتمثل في إقناع مسئولي متحف جامعة باليفست بالتخلي عن المومياء.. وقد نجح بفضل تصميمه..

والآن ولأول مرة تجتمع المومياء والتابوت مرة أخرى.. لأول مرة المومياء تعود إلى موطنها الحقيقي.. مصر..

*****

-هل تريد شرابًا أو أي مأكولات؟!!!

هكذا انتشلته المضيفة الفاتنة بابتسامة رقيقة من أفكاره.. فرفض بتهذيب وهو يبادلها الابتسامة ثم نظرمن النافذة.. كان السحاب يبدو من أعلى كجبال متراكمة من البخار.. لكن بغتة احتجبت السماء عن الأنظار وتحول السحاب إلى ضباب كثيف.. ثم فجأة تغير كل شيء.. اهتزت الطائرة اهتزازت عنيفة كأن زيوس يقوم برجها كزجاجة مياه غازية..

تتواثب كضفدع مخبول.. حتى مالت بشدة كطائرة ورقية.. ليسود الهلع الركاب.. فبدأ يتلو آيات القرآن والمضيفات المذعورات يحاولن تهدئة الركاب..

-برجاء الالتزام بتعليمات الطوارئ.. فليربط الجميع الأحزمة ولتضعوا أقنعة الأكسجين.. نحن نواجه عاصفة قوية..

لكن تعليماتهم ذهبت أدراج الرياح ولم تنجح في تخفيف وطأة الهلع.. بدا واضحًا أن الطائرة تفقد السيطرة.. تندفع بجسارة نحو مصيرها الكارثي.. فصرخ كل من في الطائرة.. حتى شعر أن أصواتهم تحولت إلى مناشير تشق رأسه حرفيًّا..

حينها نظر من النافذة مرة أخرى فوجد نيرانًا هائلة ناشبة في جناح الطائرة.. قبس من الجحيم..

اللعنة.. كل هذا بسببه.. لقد ارتكب أكبر فعل أحمق في التاريخ عندما جلب هذه المصيبة معه في الطائرة.. فأغمض عيناه وهوً يتنفس ببطء..

-شهيق.. زفير.. شهيق.. زفير..

لكن الهواء كان شحيحًا.. رئتيه تستخلص الأكسجين بالكاد.. فبدت الرؤية ضبابية.. قلبه يخفق بعنف.. روحه عند الحلقوم حرفيًّا.. فأخذ يبتهل إلى الله بقلب واجف..

-يامغيث أغثني.. يامغيث أغثني..

ثم تلا القرآن بخشوع وهو يقسم أنه لو كتبت له النجاة أول شيء سيفلعه عندما يصل إلى سطح الأرض أن يلقي بهذه المومياء الملعونة في مياه النيل.. لكن الطائرة خالفت أمنياته حينما سقطت عموديا ومعها بلغت الصرخات حدًّا غير مسبوق.. ثم غاب عن الوعي.

(٢)

وضع الطبيب الأشعة المقطعية على فانوس الأشعة.. ثم أخذ يتأمل مقاطعها لأكثر من دقيقتين متجهمًا.. حتى سأله المريض وتوتر هائل يكتسي صوته..

-ما رأيك في الأشعة يادكتور؟!!!

لكن الطبيب بدا مرتبكًا.. بدا مصدومًا.. طيلة حياته يبدو في هذه الموقف مترددًا.. هل يخبر المريض بحقيقة الأمر أم يخفيه عنه؟!!! لكنه كان ينتمي لمدرسة المصارحة.. المدرسة التي تؤمن بأنه من حق المريض أن يعرف حقيقة ما يحدث له.. حتى لو كانت الحقيقة قاسية.. قاسية للغاية.. فتنهد بعمق ثم قال بصوت هادئ مفعم بالشفقة..

-للأسف.. كنت أتمنى أن يكون الأمر غير ذلك.. لكن الأشعة واضحة تمامًا.. هذا ورم كبير بالرئة وفي مرحلة متقدمة للغاية.. أنا آسف.

(٣)

فتح آسر عينيه بمشقة.. في البداية كانت الرؤية مشوشة.. دوار هائل يعصف برأسه كأنه نزل توه من إحدى ألعاب الملاهي.. ففرك عينيه بصعوبة ليجد أنه بمواجهته إحدى المضيفات التي تحاول إفاقته..

-أستاذ آسر.. هل تسمعني؟!!! أستاذ آسر..

فأجابها بصوتٍ واهن..

-هل متنا؟!!!

فأطلقت ضحكة مدوية ثم قالت مبتسمة..

-لا.. هاهاها.. عمر الشقي بقي.. لقد نجونا.. كانت عاصفة مفاجئة ومخيفة بعض الشيء لكننا تجاوزناها الحمد لله..

-والجناح الذي احترق.. ألم تسقط الطائرة؟!!!!

فاستطردت بنفس الابتسامة وهي تحاول طمأنته..

-لا لم يحدث أيا من هذا.. على الأرجح كل مارأيته هي هلاوس نتيجة نقص الأكسجين.. حمد الله على السلامة.. لقد وصلنا إلى أرض الوطن..

فشكرها آسر وهو يبادلها بابتسامة منهكة..

-أشكرك.. هل يمكن فقط أن تناويليني كوب ماء؟!!!

-بالتأكيد..

كان آسر يشعر بأن حلقه جاف كقفر عاصف.. وفي خلال ثوانٍ تجرع كوب الماء دفعة واحدة كأنه لم يشرب مذ ألف عام.. تنهد بعدها بعمق.. ثم حاول النهوض من مقعده بصعوبة، والمضيفة تعرض عليه مساعدته..

-استرح.. يمكنني مساعدتك..

فأجابها بابتسامة ودودة..

-لا.. أشكرك.. أنا أفضل الآن..

في البداية كان يترنح.. كأنما يسير على بحر من الرمال المتحركة.. لكنه استند على مقاعدة الطائرة حتى بدأ يستعيد توازنه تدريجيًّا.. بعدها بأقل من ساعة استقل سيارة تابعة للمتحف بحوزته المومياء وبجواره السائق الذي استقبله بترحاب شديد..

-حمد الله على السلامة يادكتور آسر.. نورت القاهرة والله..

-شكرا ياحج علي.. صدقني لولا رحمة القدر كنتم تسلمتم نعشي مع هذا التابوت.. عامةً الحمد لله الذي قدر ولطف.. هيا ياعجوز.. كفانا إهدارًا للوقت.. أريد أن أسلم هذه الشحنة المشئومة حتى أستريح..

فقال له السائق وهو يبتسم حتى بدت أسنانه المصفرة كأعجاز نخل منقعر..

-لم يكن من الضروري أن تأتي أنت بنفسك.. كان يمكن لأي أحد آخر أن تُوكل إليه مهمة تسليمها.. بالتأكيد أنت مرهق جدًّا بعد هذه الرحلة الطويلة..

-لا.. لقد سافرت آلاف الكيلومترات من أجلها.. لن أستريح بالفعل إلا عندما أسلمها بنفسي.. هي عادة قميئة لدي.. لا أثق في أحد إلا نفسي.. ربما نوع من الوسواس القهري.. ما حك جلدك مثل ظفرك..

-معك حق.. حسنًا فلنتوكل على الله..

بعدها دفع السائق عصا الفتيس للأمام ودهس على البنزين بقوة..

يا مسافر وحدك

يا مسافر وحدك وفايتني

ليه تبعد عني وتشغلني

دوت أغنية عبدالوهاب «يامسافر وحدك» من مذياع السيارة، فيما كان حج علي مندمجًا معها للغاية يردد كلماتها منتشيًا..

على نار الشوق أنا حاستنى واصبر قلبي وأتمنى

على بال ما تجيني

على بال ما تجيني وأتهنى

فقال له آسر متهكمًا..

-لم أعلم أنك تحب عبدالوهاب لهذه الدرجة!!!

فرد عليه ساخرًا..

-طبعًا.. الزمن الجميل.. هو وأم كلثوم يمثلون لي نوعًا من الحشيش الفاخر.. سطل رباني..

-طيب ياصاحب الدماغ العالية.. ركز في القيادة أرجوك.. وإلا انتقلنا إلى عالم عبدالوهاب ورفاقه..

-هاهاهاها.. لا تخف يادكتور.. أنا أستطيع القيادة بعين مغمضة..

ثم زاد من ضغط دواسة البنزين لتنطلق السيارة تشق الطريق السريع بسرعة هائلة.. حتى مرت بجانبهم مقطورة انحرفت نحوهما حتى كادت أن تحتك بهما..

فانفعل الحج على وصرخ في قائدها وهو يسُبه..

-حاسب يابن البهيم.. ستقودنا إلى حتفنا..

لكن قائد المقطورة لم يبال.. نظر إليه شذرًا وقام بتجاوزه..

ثم وقف أمامه حتى أجبره على الوقوف..

فترجل على من السيارة وهو يمسك بالكوريك ويقسم أن يهشم رأسه وآسر

يحاول منعه لكن بدون جدوى..

-اهدأ ياحج علي.. حصل خير.. هناك مهمة علينا إتمامها.. لكنه كان غاضبًا كثور هائج..

-معذرة يادوك.. لكن أقسم بالله لألقنه درسًا لن ينساه طيلة حياته.. هؤلاء السكارى قائدي المقطورات.. فصعد المقطورة غاضبا وهو يتلفظ بألفاظ قاذعة.. ثم فتح الباب و..

رشقت طلقة نارية في منتصف جبهته أردته على الأرض صريعًا فورًا..

وقبل أن يستوعب آسر ما يحدث.. جاءته ضربة على رأسه فغاب عن الوعي..

تماما.

(٤)

إزاي إزاي، أوصف لك يا حبيبي إزاي؟
قبل ما أحبك كنت ازاي..
يا حبيييييييبي..

كان الخفير جالسًا على أريكة خشبية يحتسي الشاي الصعيدي الدافيء بتلذذ بيسراه.. أما يمناه فمتشبثة بخرطوم نارجيلة يسحب أنفاسًا متلاحقة منها وعيناه زاائغتان من النشوة بينما دخانها الكثيف يتراقص حوله كأفعى..

يبادل الأدوار.. رشفة شاي فنفثة دخان.. نفثة دخان فرشفة شاي.. ترقد بجواره بندقيته الميري في سلام على جانبها.. وعلي الناحية الأخرى كلبه باسط ذراعيه..

علي خلفية موسيقية لصوت أم كلثوم الجذل الذي يدوي من مذياع قديم كأنه آت من قلب النعيم نفسه فيبعث مع قرقرة النارجيلة في السديم موجات كهرومغاطيسية دافئة تصيب كل من يسمعها بالسطل..

يا حبيبي،إيه أجمل من الليل، واتنين زينا عاشقين

تايهين، محناش حاسّين العمر ثواني ولّا سنين

كان هذا هو الروتين اليومي لهذا الخفير.. إلا أن في هذا اليوم تغير الوضع قليلاً.. بالذات في الثانيةعشر صباحًا.. حينما جفل كلبه فجأة كأنه أصابه مسٌّ من الجن.. فطفق يركض وينبح بدون سبب.. فاستفاق الخفير من سكرته.. ثم وضع أدوات متعته جانبا وهو يسبه بأقذع الألفاظ.. ثم التقط بندقيته ومصباح كيروسيني بائس راكضًا ورائه وهو يهتف غاضبًا..

-انتظر.. انتظر يابن الكلب.. والله لو أمسكتك لأعلقكك من ساقيك..

لكن الكلب استمر في العدو بلا أي اهتمام بتهديد صاحبه.. حتى وقف أمام كوة مظلمة ثم ولجها.. فلما وصل الخفير إلى هذه البقعة توقف بغتة مرتعدًا..

فهذه الكوة لم يرها من قبل.. كما أن منظرها بعث في جسده قشعريرة باردة لأنها تبدو كفتحة قبر.. لكن نباح كلبه المدوي من الداخل شوش على تفكيره فأصبح بين نارين.. أن يترك كلبه لمصيره حتى لو كان الموت.. أو أن يدخل ورائه ويمسك به ويؤدبه كما يؤدب زوجته..

كان الخيار صعبًا للغاية.. لوهلة بدا مترددًا.. لوهلة فكر أن يضع ذيل جلبابه بين أسنانه ويفر على عقبيه كما يقولوا.. فكل أساطيرالقرية من أم الشعور والنداهة وأبوفيس والعفاريت تراءت أمام عينيه في هذه اللحظة.. لكنه شعر بالخزي حينما تذكر جده الأكبر مغاوري الذي يشاع عنه أنه أسر أحد سادة الجن الأزرق وتزوج زوجته وأنجب منها تسعة.. فأخذ يتمتم لنفسه محفزًا..

-تشجع يا عتمان.. لا ترتجف مثل النساء.. أنت من نسل مغاوري العظيم.. وعامة لا يوجد شيء مخيف داخل هذا الكهف.. وحتى لو وجد فمعك مالم يكن مع جدك.. بندقية ميري قادرة على الفتك بإبليس شخصيًّا..

فدلف الخفير الكوة بحذر.. ثم..

هوووووووووب..

وجد نفسه ينزلق على منحدر رملي.. ينزلق لأكثر من عشرة أمتار بلا توقف.. يتدحرج بسرعة كأنه يسقط في حفرة لا قرار لها.. حتى هوى في النهاية على أرض صلبة، ليتحطم مصباحه ويلقي نفسه محاصرا بالظلام الدامس من كل ناحية..

هنالك تملك الخوف كل خلية في جسده.. خاصة مع صعوبة استنشاق الهواء..

-بسم الله.. بسم الله.. قل أعوذ برب الناس.. ملك الناس.. إله الناس.. من شر

الوسواس الخناس..

أخذ عتمان يبسمل ويتمتم بآيات من القرآن الكريم متوجسًا.. فأخرج من جعبته عود ثقاب وأشعله..

ورغم أن الضوء كان شحيحًا.. لكنه رغم ذلك نجح أن يتبين ملامح المكان بالكاد.. كانت النقوش والرسوم الملونة تحيط به من كل جانب وعلى السطح.. نقوش لثيران.. وقطط.. وبشر لهم رؤوس حيوانات.. أبي منجل.. ابن آوي.. صقر.. بقرة.. إلخ.. نقوش هيروغليفية بديعة..

كانت علامات واضحة لا تحتاج إلى تخمين.. لقد سقط داخل مقبرة فرعونية.. لكنها لسوء الحظ خالية.. خالية تمامًا..

فنصب قامته وهو يتلفت حوله.. حتى رأى كلبه في أحد الجوانب يحفر بعنف وينقب عن شيء ما..

فاندفع نحوه وهو يسبه ويجذبه غاضبًا..

-تعال.. تعال يا ابن الكلاب.. هل يعجبك الآن الورطة التي وضعتنا فيها يابن ال*****؟!!!

لكن الكلب تملص من قبضته، واستمر ينقب بإصرار عجيب حتى وصل الغضب بصاحبه إلى الدرجة القصوي فقال متوعدا..

-أقسم بالله يا ابن الكلاب لو لم تكف وترجع لأضربك بالنار.. لكن الكلب لم يأبه به واستمر في الحفر وإلقاء التراب..

هنالك تذكر عتمان جده مرة أخرى حينما أخبره أن ما يميز الرجال عن الحريم أن كلماتهم بتارة كالسيف فلايخلفون وعودهم أبدًا مهما كان الثمن.. فوجد نفسه تلقائيًّا يرفع سلاحه ويوجه فوهته نحو الكلب.. ثم ضغط على الزناد و..

طاااااااااااااخ..

حينها صعقته المفاجأة. مرت الطلقة بجوار الكلب.. نجا منها بأعجوبة.. ليجد الكلب يركض نحوه لاهثا، حاملاً بين أسنانه صحائف بردي.. صحائف بردي منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

(٥)

جريدة الشروق..
سرقة المومياء المشئومة..

كتب.. أكرم سعد..

أعلن المتحدث باسم وزارة السياحة عن سرقة المومياء النادرة المشتهرة باسم المومياء المشئومة بعد جهود حثيثة لاستعادتها من لندن بعد أكثر من مئة وعشرين عامًا لتجهيزها للعرض في المتحف المصري الكبير..

وقد عثرت قوات الشرطة على السيارة التي كانت تقل المومياء في طريق مصر إسكندرية الصحراوي محترقة تمامًا بها جثة متفحمة لقائدها، وترجح اختطاف عالم الآثار د.آسر الجندي.. وتهيب وزارة الداخلية بالمواطنين بالإدلاء بأي معلومات قد تساعد في العثور على الجناة.

(٦)

فتح آسر عينيه للمرة الثانية.. لكن هذه المرة جاءت في غرفة مظلمة وليست داخل الطائرة.. كانت الرؤية مشوشة قليلاً حتى بدأت تتضح رويدًا رويدًا.. ليجد نفسه بمواجهة شخص حنطي البشرة متوسط القامة ضخم الجسد عيناه متورمتان يبتسم ويقول له بنبرة ودودة وضحكاته تجلجل كموتورمعطوب..

-حمد الله على السلامة يادكتور.. هع هع هع هع..

فقال آسر بصوت واهن..

-الله يسلمك يا عوني.. هل وصلنا؟!!!!

فأجابه على الفور..

-نعم.. وصلنا.. أعتذر لك لأن يدي كانت ثقيلة..

فقاطعه آسر بضحكة ساخرة..

-ثقيلة فحسب.. هاهاها.. يدك يا أخي مثل مطرقة حديدية.. كأنها مطرقة ثور نفسه..

فسأله عوني ببلاهة..

-من ثور هذا؟!!!

-لا عليك.. المهم لقد نفذت الجزء الخاص بك كما اتفقنا.. والآن جاء دوري.. اسمح لي أن أحضر لك الأموال من الخزنة..

فرمقه عوني بنظرة تشكك وهو يصوب فوهة السلاح ناحيته..

-تمام.. اعذرني يادكتور.. أبي علمني ألا أثق في شخص على وجه الأرض حتى لو أخي نفسه.. اعذرني.. سلاحي سيكون في ظهرك.. لو حدثت أي حركة غدر سأفرغ الطبنجة كلها داخلك كما فعلتها في صديقك السائق.. من يقتل مرة

يقتل ألف..

فازدرد آسر ريقه بصعوبة محاولا طمأنته..

-لا تخشي شيئا.. أنا رجل أحفظ الوعود.. كما أنني رجل مريض.. لن أستفيد شيئًا بغدرك.. ماذا أستفيد بعد كل هذا التخطيط لو أردتيتني جثة هامدة؟!!!

ففك عوني وثاق آسر ثم مضى يتبعه يهدده بسلاحه حتى دخل غرفة نومه متجها إلى خزانة الثياب..

فأخرج منها حقيقة جلدية وأعطاها لعوني الذي ابتسم حتى بدت أسنانه المصفرة ككلب ضال بائس بعد طول جوع.. التقطها على الفور.. قائلاً بصوت أجشّ..

-معذرة مرة أخرى يادكتور.. تراجع للخلف.. يجب أن أعد هذه الأموال بنفسي..

فقال آسر بابتسامة فاترة..

-حقك.. لديك كل الوقت..

ثم بدأ يسعل بشدة.. يسعل دما.. حتى ارتبك عوني لما رآه..

-هل أنت مريض يادكتور؟!!!

فأجابه آسر بصوت مبحوح..

-نعم.. مريض بالسل منذ فترة قصيرة وأتلقى العلاج..

ثم دس يده داخل جعبته.. فصوب عوني المسدس ناحيته متربصًا..

-ماذا تفعل؟!!!

فقال آسر بصوت مبحوح..

-يا أخي.. السل معدي.. أحتفظ دائما بقناع طبي حتى لاأعدي أحدًا..

ثم أخرج من جيب سرواله قناعًا طبيًّا N٩٥ وربطه حول وجهه.. فنكص عوني للخلف وهو ينظر له باشمئزاز..

-اللهم احفظنا.. حسنا.. ابتعد.. ابتعد..

ثم جلس على الفراش ككلب مسعور يعد الأموال في نهم والسلاح بجواره.. بينما يتابعه آسر متململا.

(٧)

طريقة تحضير سم بذرة الخروع «الريسين»..

١-احضر وزنًا معينًا من بذور الخروع وتخلص من غلافي البذور عن طريق كسرها وتخليص البذور منها أو اذا كانت كمية البذور كبيرة فتوضع في ماء مضاف إليه هيدروكسد الصوديوم بهذه النسب..

٥٠جرام بذور الخروع ٢٨٠ مل من الماء الى ملعقتين من الصودا الكاوية.

٢- ضع البذور بعد تخليصها من القشور في خلاط أو مطحنة مع أربعة أمثال وزنها من الأسيتون واطحنها جيدا.

٣- صب الخارج من الخلاط أو المطحنة في كأس أو علبة بلاستكية وغطه جيدا لمدة ٧٢ ساعة.

٤- بعد مرور ٧٢ ساعة رشح الخليط واعصر العجينة المتبقية لإخراج أكبر كمية من الأسيتون المحتوى على المواد الغير السامة.

٥- أضف كمية جديدة من الاستون تعادل أربعة أمثال وزن العجينة في كأس أو علبة مع التغطية من جديد لمدة ٧٢ساعة.

٦- بعد مرور ٧٢ ساعة يمكنك ترشيح العجينة للحصول على السم النقي بعد عملية التجفيف.

ملاحظة:(يمكن استخدام السم المذاب في الأسيتون أيضا في عملية القتل بسم الريسين)

(٨)

جثا عوني على ركبتيه يلهث، لسانه يتدلى من فمه ككلب مريض.. يتعرق بغزارة.. أنفاسه متسارعة كأنما يركض في ماراثون.. حتى حال جلده إلى اللون الأزرق وهو يجاهد كي يلتقط نفسه ويقول بصوت مختنق..

-هواااااااء.. أريد هواء.. انا أختنق.. أنا أمووووووووت..

فدنا منه آسر بخطوات بطيئة وفي عينيه تلوح نظرة انتصار.. ثم مال بجذعه للأمام والتقط السلاح وهو يقول بصوت متهكم..

-مسكين ياعوني.. لقد صور لك عقلك البسيط أنك يمكن أن تخدع عبقريًّا مثلي.. هل تظنني خططت لكل هذا ولم أخطط لهذه اللحظة؟!!! هل تظن أنني سأترك مصيري يحدده شخص جاهل مثلك؟!!!

فنظر نحوه عوني جاحظ العينين وزبد أبيض يخرج من فمه.. كان من الواضح أنه يحتضر.. ثم استأنف آسر الكلام بذات الأسلوب المتهكم..

-يؤسفني أن أخبرك ياعوني أن دمك الآن مسمم بمادة الريسين.. التي كانت تسري في دمك بالفعل حينما استشنقتها من دفعة الأموال الأولية التي منحتك إياها منذ ثلاثة أيام.. والآن تلقت رئتيك جالونات مكثفة منها من الأموال التي قمت بعدها.. هاهاهاها.. أنا لا تهمني هذه الأموال.. اللعنة عليها.. لن أستفيد شيئًا منها.. أنا رجل مريض.. مريض بالسرطان وليس السل.. كما أنني أملك أضعافًا منها بالفعل..

حاول عوني الكلام لكن صوته خرج متحشرجًا..

-يابن الكل..

لكنه حتى لم يستطع أن يستكمل سبته.. فخر صريعًا على الأرض.. خمدت أنفاسه للأبد.

(٩)

قبل ثلاثة أسابيع..

حدق آسر مشدوها في صحائف البردي التي عثر عليها كلب أحد الخفراء بالصدفة في مقبرة بالدير البحري.. كان يجيد القراءة بالهيروغليفية كأنها لغته الأم.. لهذا فقد فطن إلى عظمة الاكتشاف الذي بين يديه بعد أن أتم قرائتها سريعًا.. فالذي بحوزته الآن اكتشاف من أعظم اكتشافات القرن الحادي والعشرين.. فهذه الصحائف هي نسخة عالية الجودة من كتاب الموتى.. لا توازيها في الروعة إلا نسخة كتاب آني في لندن.. لكنها ليست مثل أي نسخة..

فهذه هي نسخة كتاب الموتى لكاهنة من أشهر كهنة مصر القديمة.. الكاهنة التي قضت جثتها ردحا طويلا في المتحف البريطاني..

الكاهنة صاحبة أشهر مومياء في العالم..

المومياء رقم ٢٢٥٤٢..

المومياء المشئومة.

(١٠)

وقف آسر أمام التابوت وعلي ثغره تلوح ابتسامة مظفرة.. لقد نجح مخططه كما رتب.. هذه هي أذكي عملية تهريب آثار في التاريخ.. عملية تهريب بموافقة الأطراف الحكومية وتحت بصرها.. لكنها على الأرجح أول عملية تهريب آثار إلى داخل مصر وليس إلى خارجها..

مضى بتؤدة نحو التابوت ثم مرر يده ببطء عليه وعينيه تلمعان ببريق الإنتصار.. ينبغي أن ينال جائزة نوبل عن هذه العملية لبراعته الشديدة.. من أول استغلال منصبه في مخاطبة الأطراف الحكومية الأجنبية والموافقة على استعادة المومياء والتابوت إلى الاتفاق مع أحد المهربين على تدبير عملية سطو مسلح وهمية.. وحتى هذا المهرب المسكين الذي تخلص منه دون أن يلوث يده بقطرة دماء واحدة..

فتح آسر التابوت ثم حدق فيها منتشيا كأنها المحبوبة وهو يتنهد..

-آاااه.. لو تعلمِي أيتها الكاهنة ماذا فعلت كي أنالك.. لو تعلمِي كم قطعت كي تكونِ في حوزتي.. لكن ما يُؤانسني أن جهدي لم يذهبَ سدى، وأنني نجحت في النهاية..

ثم جثا على ركبتيه وأخذ يهمس إليها..

-أنتِ الآن أمل الوحيد.. منذ أن عرفت بإصابتي بسرطان الرئة في مرحلة متقدِمة اسوددت الدنيا في عيني.. فقدت الأمل في كل شيء.. كنت على شفير الموت حتى عثروا على هذه الصحائف.. كتاب الموتى الخاص بك.. أدركت حينها أن القدر لم يكن قاسيًا جدًّا علي.. أدركت حينها حقيقتَك العظيمة.. عرفت قدرك أيتها الكاهنة المبجلة.. كاهنة «آمون رع « العظيمة.. لحسن حظك أيضًا أن كتابك وقع في يدي.. يد الشخص الوحيد في العالم الذي يمكنه مساعدتك.. فقد حانت اللحظة التي تستيقظين فيها من سباتك الطويل.. حانت اللحظة لتمارسِي سحرك المعظم مجدداَ وتشفيني من دائي

وتمنحيني الخلود..

ثم أخرج لفائف البردي من حقيبة سامسونايت سوداء.. وشرع في قراءتها بصوت مرتفع خاشع كأنه يرتل آيات مقدسة..

-لقد شققت طريقي.. أنا أعرفك.. أعرف اسمك.. وأعرف اسم الإله الذي يحرسك.. سيدة الأهوال ذات الجدران العالية المسيطرة.. سيدة الهلاك التي تنطق بالكلمات التي تصد المفسدين.. وتخلص من الهلاك الذي يسير على الطريق المستقيم.. هذا هو اسمك.

اهتز التابوت اهتزازة أولى.. فارتعد آسر وازدرد ريقه ثم استأنف الترتيل..

- لقد شققت طريقي.. أنا أعرفك.. أعرف اسمك.. وأعرف اسم الإله الذي يحرسك.. سيدة السماء.. سيدة العالم التي تلتهم اللهيب.. سيدة البشر الأكثر عظمة من كل الرجال.. هذا هو اسمك..

اهتز التابوت اهتزازة ثانية حتى سمع صوتًا مثل صوت أنين.. كان الخوف يتصاعد داخل نفس آسر لكنه مع ذلك استكمل القراءة..

- لقد شققت طريقي.. أنا أعرفك.. أعرف اسمك.. وأعرف اسم الإله الذي يحرسك.. من تسيطر بالسكاكين.. سيدة العالم.. مهلكة أعداء القلب الهامد.. من تقرر فرار المسكين من الحدث الشرير.. هذا هو اسمك..

استمر التابوت في الاهتزاز كأنه أرض مزلزلة.. ثم بدأ يتلو الكلام بتلقائية.. الكلمات تخرج منه بلا أي سيطرة.. حتي بدأت المومياء تنهض من التابوت وتنزع اللفائف من جسدها..

- لقد شققت طريقي.. أنا أعرفك.. أعرف اسمك.. وأعرف اسم الإله الذي يحرسك.. سيدة النار.. سيدة اللهيب التي تستنشق التضرعات التي ترفع إليها.. لا يستطيع أن يدخل احد لاستعطافها.. هذا هو اسمك..

استندت المومياء على التابوت.. لونها مثل لحاء الأشجار.. وعيناها المجوفتين بها آبار من نار.. ومن جسدها تخرج ألسنة نار تتطاير شظاياها في كل

ناحية..

تحكم آسر في أعصابه بالكاد.. شعر بأن أوصاله ستفلت منه مثل الأفلام المتحركة.. لكنه واصل الترتيل..

- لقد شققت طريقي.. أنا أعرفك.. أعرف اسمك.. وأعرف اسم الإله الذي يحرسك.. سيدة الضوء العظيمة.. إليها يتضرع الرجال بغزارة.. لا يعرف المرء طولها ولا عرضها.. لم يوجد أبدًا من يشبهها.. منذ البدء هناك ثعبان يرقد فوقها لا يدري أحد حجمه.. هذا هو اسمك..

اقتربت المومياء منه ولسانها يخرج من فمها ويتلوى كالأفعى مطلقة فحيحًا مرعبًا..

كاد يتبول آسر على نفسه من الرعب.. لكنه وجد نفسه يرتل تلقائيًّا بدون حتى النظر في اللفائف.. حتى بدأت دموعه تسيل رغمًا عنه..

- لقد شققت طريقي.. أنا أعرفك.. أعرف اسمك.. وأعرف اسم الإله الذي يحرسك.. النار البراقة بألسنة لهيب لا تخمد.. تمتد بعيدًا صاعقة.. لا يُمكن لأحد مقاومتها، ولايستطيع أحد عبورها بسبب آذاها.. هذا هو اسمك..

أخذت المومياء تدور حوله حتى بدأت عظامها تكتسي باللحم تدريجيًّا.. وآسر لا يزال يقرأ وهو ينتحب كأنه يتضرع..

- لقد شققت طريقي.. أنا أعرفك.. أعرف اسمك.. وأعرف اسم الإله الذي يحرسك.. سيدة القوة.. من تشع كزمردة الجنوب.. من ترفع الصورة السماوية المقدسة وتكسو الضعيف..

وضعت المومياء يدها على كتفه.. حتى شعر كأنه سينسحق تحت وطأة ضغطها..

فأراد أن ينفجر في البكاء.. أراد أن يصرخ لكن الصرخات ذابت في فمه كأن أحباله الصوتية تلاشت تمامًا..

- لقد شققت طريقي.. أنا أعرفك.. أعرف اسمك.. وأعرف اسم الإله الذي يحرسك.. موهوبة الصوت.. التي تنهض هؤلاء الذين يصرخون ويتضرعون إليها.. المخوفة عالية الصوت.. السيدة التي يجب خشيتها.. وتهلك من لا يكون معها..

أطبقت اليدان على عنقه.. فاختنقت الصرخات في حلقه.. ومعها أزكمت رائحة عفونة مقيتة أنفه.. توغلت داخل كل خلية في جسده.. ثم ضرب المنزل زلزال.. زلزال رهيب.. تصاحبه ريح عاتية.. ريح صرْصَر.. فتمددت الشقوق والشروخ في كل مكان.. تحطم الزجاج وتناثر في كل ركن.. ثم دوى انفجار عنيف.. انفجار رهيب.. معه انبلجت من السقف نار مريعة.. نار هائلة من قلب سقر ذاتها..

كان مشهدًا مهولاً.. كأن المنزل يشهد يوم الدينونة نفسه.. حتى اكتملت صورة الكاهنة.. الآن بدت بشرية بالكامل.

(١١)

«الذي سوف يغير من هذا الكتاب أو يحرّكه، لن يُدفن، ولن يتسلم أية قرابين، ولن يستنشق البخور، ولن يرفع الماء له أي ابن أو ابنة، ولن يذكر اسمه في أي مكان على الأرض، ولن يرى أشعة الشمس.»

من مقبرة مجهولة

عاريًا تمامًا كما ولدته أمه.. موثُوقا من أطرافه على منضدة خشبية.. لم يكن يدرك آسر هل هو ميت.. أم حي.. أم يحلم؟!!!!! ثم تبين الأمر عندما لمح طيفًا يقترب منه رويدًا رويدًا.. اقترب حتى اتضحت هيئته تمامًا..

كانت هي الكاهنة.. بشحمها ودمها.. بصورتها البشرية كاملة.. ترفل في زيها الأبيض الفرعوني البديع.. حتى اقتربت منه وهي تقلب في إناء معدني وتبتسم.. لكنها ابتسامة من النوع الذي يبعث الرعب في القلوب..

ارتعد آسر.. صرخ لكن لم تخرج أي صرخة.. مثلما كان يحدث معه عندما كان يمر بأحلام الجاثوم.. في كل مرة يشعر بأنه يدفع حائلاً سميكًا.. صرخات وصرخات مكبوتة.. حتى ينجح ويستيقظ في النهاية..

كرر هذه اللعبة هذه المرة لكنها لم تفلح.. لم تفلح لأن هذه المرة ليس حلمًا من أحلام الجاثوم.. ما يحدث له حقيقي.. حقيقي جدًّا.. وقد أدرك ذلك عندما رأى الكاهنة بجوارها الأواني الكانوبية الأربعة الشهيرة.. الأواني التي تشكلت أغطيتها على شكل رؤوس بأربعة صور مختلفة..

الأول صقر..

الثاني قرد البابون..

الثالث إبن آوي..

والرابع رأس إنسان..

كان من السهولة ان يدرك أنهم أبناء حورس الأربعة.. قبح سنوف.. حابي.. دوامتوف.. وإمستي..

لكن ما أثار رعبه أكثر هو معرفته بأن هذه الأوعية ليست مجرد أوعية عادية.. بل هي أوعية تحنيط.. تحمل أحشاء الميت عند تحنيط جثته..

صبت الكاهنة وهي تبتسم بلا مبالاة سائلاً لزجًا فوق جسد آسر الذي كان

يتشنج كالممسوس، وعيناه جاحظتان من الرعب.. لكنها لم تبال به.. ثم التقطت دورقًا آخر من مياه النيل وألقته فوقه فارتجف.. كان آسر يدرك الخطورة الثانية.. كان يعرف خطوات التحنيط عن ظهر قلب.. كان يعرفها لأنه طالما شرحها للسياح..

١-استخراج أحشاء الجسد كلها عدا القلب «مركز الروح والعاطفة»..

٢-حقن زيت الصنوبر في الأحشاء عن طريق فتحة الشرج..

٣-ملأ تجويف الصدروالبطن بمحلول النطرون..

٤-استخراج المخ من الجمجمة عن طريق الأنف بالأزميل..

٥-سحب المخ من خلال فتحة الأنف بسنارة محماة ومعقوفة..

٦-طلاء الجثة براتنج سائل لسد جميع مسامات البشرة..

٧-استخدام شمع العسل لإغلاق العينين والأنف والفم وشق البطن..

٨-تلوين الخدود والشفاه بمستحضرات تجميل..

٩-لف المومياء بأربطة كتانية مدهونة بالراتنج وشمع العسل..

أمسكت الكاهنة بخنجر ثم سحبته بحدة محدثة شقًّا أيسر ضخمًا في بطنه.. فشعر بألم رهيب.. ألم لا يُحتمل.. ألمٌ فشلت الصرخات في أن تعبر عنه.. ثم شعر بيدها تعبث بأحشائه.. تنزع الطحال.. الأمعاء.. الكلي.. الكبد.. ثم رصت الأحشاء بلا أي معاناة داخل الأوعية الكانوبية.. رصتها ببرود..

الملعونة.. لم تفقد مهارتها في التحنيط رغم موتها منذ آلاف السنوات.. لا يعرف كيف تحمل كل هذا.. لماذا لم تصبه صدمة عصبية ويموت من الألم وينتهي.. لكن العذاب استمر.. فأمسكت أنبوبة معدنية ودستها داخل الأنف.. حتى شعر بمادة كاوية تتغلغل في رأسه..

في اللحظة الأخيرة يقولون إن حياة المرء تمر أمام عينه كشريط سينمائي..

لكن هذا لم يحدث في حالته.. فقد شعر بأن ذكرياته تحترق.. تتحلل.. تذوب.. لأن مخه كان حرفيًّا يذوب.. سال عقله.. تحول إلى حساء.. ثم أظلمت الشاشة للأبد.. وغاب عن عالمنا.

(١٢)

جريدة الشروق..

عودة المومياء المشئومة..

كتب أكرم سعد..

في تطورٍ مذهلٍ للأحداث، وبعد فشل جهود الشرطة في العثور على الجناة، أعلنت وزارة السياحة عن ظهور تابوت المومياء الشهيرة باسم المومياء المشئومة في المقبرة الخاصة بها بوادي الملوك.. لكن الغريب أنه لم يكن يحتوي على المومياء..

وقد تم إعادة التابوت مرة أخرى للمتحف المصري الكبير لتجهيزه للعرض للجمهور فيما بعد.. جدير بالذكر أنه لم يتم العثور على العالم المُختَطَف د.آسر الجندي أو الجناة إلى الآن.

(١٣)

دلفت سارة غرفة الكشف ترفل في زيها الأسود شاحبة الوجه كاسفة البال أنهكها الحزن.. بعد أن مرت ستة أشهر منذ صدمتها الكبرى.. اللحظة التي صارت بعدها رفيقة الأطباء النفسيين..

كانت تقبع على المكتب لوحة معدنية تحمل اسم يوسف جميل استشاري الطب النفسي الشهير.. الذي داومت على المتابعة معه بعد أن شخصها بأنها تعاني اضطرابَ ما بعد الصدمة.. Post traumatic stress disorder..

فسألها بصوت هادئ رزين..

-ها.. ما أخبارِك الآن يا آنسة سارة؟!!! أرجو أن تكونِي قد شعرتِ بتحسن بعد الدواء الجديد؟!!

فأجابته بصوتٍ حزين مكسور..

-بعض الشيء.. لا أنكر أنه ساعدني على عودتي للعمل بشكل ما.. لكني لا زلت أعاني.. ما زال هذا الحلم لا يُفارقني يا دكتور..

فسألها وقد عقد حاجبيه منتبها..

-أي حلم؟!!!

فصمتت للحظات.. صمتت طويلاً.. حتى قالت في النهاية بصوت متوتر..

-لا زالت أرى آسر في غرفة مظلمة تلفه الضمادات من كل جهة مثل مومياوات الفراعنة..

لكنه لم يكن ميتا.. بل حيا..

يصرخ.. لا يكف عن الصراخ.

المؤلف في سطور

مدرس مساعد في قسم الغدد الصماء بكلية طب عين شمس

صدرت له روايتان من قبل..

قواعد الرعب العشرون.. وهكذا قتل زارا..

ومجموعتين قصصيتان.. حكايات الرعب والفزع.. وحوار مع صديقي الزومبي

لمراسلة الكاتب على الفيس بوك..

https://www.facebook.com/amr.saleh.712

للترجمة والتدريب والنشر والتوزيع

info@ibda3-tp.com

dreidibrahim@gmail.com

ibda3bookstore@gmail.com